الوَصِيَّة

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

توزيـــع



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م

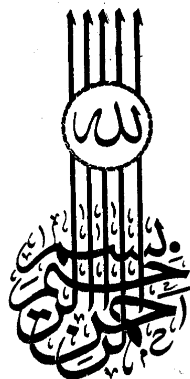
الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت: ٣٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

الوَصِيَّة

عبد المجيد صبح



تمهيد

الحمد لله الذى قهر بالمنايا كل جبار ، وأشهد ألا إله إلا الله الواحد القهار . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله خُيِّر فاختار ، والخيرة ماختار : خير بين الخلد فى الدنيا والجنة ، ولقاء الله والجنة ، فاختار صحبة الرفيق الأعلى والجنة . اللهم صل عليه صلاة دائمة ، زاكية ، نامية ؛ بما نصح للأمة حين قال : اذكروا هاذم[1] اللذات . وبعد

فإن الله سبحانه قهر خلقه بالموت . والموت مصير رهيب كثيرا مايغفل عنه الإنسان وإن ذكره لم يذكره إلا كما يذكر المكرورات التى فقدت معانيها من كثرة التكرار ! وقد عبر الحسن عن ذلك خير تعبير عندما قال : مارأيت حقا لا با طل فيه أشبه بباطل لاحق فيه من الموت ! وهو اليقين الذى لا شك فيه ، كما عبر عنه القرآن حين قال الله { واعبد ربك حتى يأتيك اليقين } الحجر : ٩٩

الموت اليقين ، والحق ، الذى لو عاينا مابعده لذهلنا عن كل شىء فى الحياة حتى الطعام والشراب ، ولقطعتنا شدة الوَهَل مما

(١) هاذم : قاطع ، والهذم : القطع .

نعاين عن عمارة الحياة . ولكن الله ـ لبالغ حكمته ـ ستر عنا هذه المعاينة وغيّب عن مداركنا ماعاينه من مات ، لتعمر الحياة ، ونستعمر الأرض ، حتى يبلغ كتاب الله أجله .

وكان من رحمة الله أن جاهرنا بالعبر ، ووعظنا بما فيه مزدجر ، حتى لا ننسى هذا الحق اليقين ، ولا يشغلنا الواقع الأقرب عن القريب المتوقع ، ولا الحاضر عن المستقبل .

وإذا كانت دراسة المستقبل (الدنيوى) قد أصبحت ـ اليوم ـ علما ، أو كالعلم ، وتكونت لها جماعات علمية ، تدرس ، وتتوقع ، وتستنبط ، ثم تخطط ـ فجدير بالإنسانية أن تدرس مستقبلها (الأخروى) الذى هى صائرة إليه ، ومورِدها الذى ليس لها صدر عنه .

ولست غاليا إذا قلت إن كل مشكلات العلاقات البشرية راجعة إلى جحود مابعد هذا المورد ، أو الغفلة عنه .

ومن عجيب هذه الدراسة للمستقبل الأخروي أنها نافعة للبشرية فى حاضرها ومستقبلها (الدنيويين) ، ولعلها خير حل لجميع مشكلات العلاقات البشرية لو آمنت بهذا الحق الذى لا باطل فيه .

ويكفينا ، كل الكفاية ، للتنبيه على نفع هذه الدراسة ، أن نذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه : اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

وهذا خير كلام جامع ، وأبلغ توجيه للعناية بالحاضر والمستقبل ، بمعناهما الأوسع ، الذى يشمل الدنيا والآخرة .

وهو من كلامه عليه السلام الكلىّ ، الذى قصّر المسلمون فى تحويله إلى قواعد للسلوك الفردى والجماعى ، وتقنينه فى قوانين تحكم الدولة والأمة . ولو فعلوا لكانوا أسبق الناس إلى كل خير ، ولكانوا ـ بقواعدهم السلوكية ، وقوانينهم التشريعية ـ خير دعاة إلى حقائق الإسلام !!

هذا ، وقد كان السبب المباشر لكتابة هذه (الوصية) قدر قدره الله وقضاء قضى به علىّ ، حين اختار ـ فى الثالث من جمادى الأولى سنة ١٤٠٩ ـ ١٣/ ١٢/ ١٩٨٨ ـ زوج ابنتى ، المرحوم م. محمد عبد العظيم العشرى ، شابا فى ريعان الشباب ، وربيع العمر ، وزهرة الحياة ، تاركا ـ مع زوجته ـ طفلة يزيدنى ، فى فجيعتى بأبيها ، معرفتى ذلّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحم .

حضرت ـ لأول مرة فى حياتى تغسيل ميت ، حين حضرت تغسيل ولدنا المرحوم ، فرأيت أموراً منكرة ، السكوت عنها كتمان للعلم ، وإقرار لإهانة الموتى ، وإضاعة لأمانتهم ، وتقصير فى حق أهلى وعشيرتى من قرية محلة دمنة .

وزاد هذا الفرض علىّ إلزاما أن وجدت الغاسل المحترف على جهل مكين ، وعدم استعداد للتعلم .

ثم زاده إلزاماً مع إلزام مشيئة الله لى أن أحضر نهاية غسل صهرنا المرحوم الحاج عبد العظيم البشلاوى فى اليوم الحادى عشر من جمادى الآخرة سنة ١٤٠٩ - ١٩٨٩/١/١٩ فى قرية المنيل مركز طلخا فشاهدت بعض المنكرات عينها ، مما جعلنى أظن ظنا يساوق اليقين أنه جهل مشترك ومصيبة عامة ، تهدر فيها سنة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وتضيع فيها أمانة الموتى ، التى قال عنها عليه السلام : من غسل ميتا ، فأدى فيه الأمانة ، ولم يفش عليه مايكون منه عند ذلك - خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

ومعنى أداء الأمانة فيه : أن يغسله الغسل الذى وردت به الشريعة . فإن لم يتم غسله على ماوردت به الشريعة فهى خيانة لأمانتها ، وخيانة لأمانة الميت ، وخيانة للمسلمين . والعالم الساكت عن كل ذلك ساكت خائن لكل هذه الأمانات . ثم أعجلنى إلى كتابتها مرض ألم بى حسبته رسول الموت ، فخشيت الفوت . (١)

ولأداء هذه الأمانة رأيت أن تطبع هذه الوصية ، بل رأى ذلك كل من سمع ملخصها خطابا عاما لأهل قريتى ، لتعم فائدتها ، وتؤدى تلك الأمانة ، التى هى فرض يخاطب به مجموع المسلمين ، إذا لم يؤد أثم جميعهم .

---

(١) وفى مدينة السويس سألنى سائل عن كفن الرجل والمرأة . فأيقنت أن الجهل بالموضوع عام ، وأن المعالجة الفردية لاتفى بالواجب ، وأن الكتابة والنشر إعلان لحكم الشرع ، وعلاج لهذا الجهل .

ثم رأيت أن أقدم بين يدى هذه (الوصية) بعض ما يتعلق بها من معنى الحياة والموت ، وصلة الإنسان بهما ، وأن أتبعها بوصيتى الخاصة ؛ لتكون نموذجا لمن شاء أن يوصى . والوصية وأحكامها ، وعمل الإنسان ماينفعه بعد موته من التشريع الذى كاد ينسى ، أو نسى حقاً على وجهه الشرعى ، فأضاع نسيانه فوائد دينية واجتماعية على الأحياء والأموات على سواء !

ماالحيـــاة ؟

ماالمــوت ؟

وماصلة الإنسان بالحياة والموت ؟

ماالحيـــاة ؟

ماالمـــوت ؟

وماصلة الإنسان بالحياة والموت ؟

أسئلة يجيلها المرء فى خاطره ، ويطرحها للبحث حينا ، ثم لا يلبث أن يطرحها عنه أحايين ، كأنها لم تكن له خاطرا أو هاجسا ، أو حديث نفس !! ويمضى إلى شأنه ، مقبلا على نفسه ، مقبلا على الحياة ، يَعُل من خيرها ، وينهل من لذاتها ، ويجمع من حلها وحرامها ، لا يشبع من جوع ، ولا يُروى من ظمأ :

دائبا يجمع القناطير للوارث والعمر دائب فى انقضاء
يحسب الحظ كله فى يديه وهو منه على مدى الجوزاء

ثم تصيبه الشوكة تؤذيه ، أو العثرة تدميه ، فيعود إلى نفسه يسائلها :

ماالحياة ؟

ما الموت ؟

وما صلة الإنسان بالحياة والموت ؟

ثم لا يفتأ ينسى ، فيعود إلى عيشه ، وتشغله مطالبه ، فيمضى إليها كأنه مخلد أبدا ، لا يذكر إلا نفسه ، ولا يشغله إلا هواها ثم تفجؤه فجاءة الحوادث ، وخطفات الموت ، فى عزيز قريب ، أو صديق حميم ، فيعود إلى عقله ، ويستيقظ فيه وجدانه ، فيعود يسأل . ما الحياة ؟ ما الموت ؟ وماصلة الإنسان بالحياة والموت ؟

الحياة تملأ على الإنسان وجوده ، ويحسها الإنسان فى غدواته والعشايا ولكنه يعجز عن إدراك كنهها ، والتعبير عن سرها .

تدرك الحياة فى النائم يستيقظ ، والوليد يستهل ، والزهرة تفوح ، والشمس تشرق ، والفجر يتنفس ... ومع كل ذلك لا تعرف سر الحياة وما تخفى من غيوب ! كالسائر فى جوف البحر ، تحيط به حقيقته من كل جهاته الست وهو يسير فى غمرته ، ويدرك وجوده ، ولكنه لا يرى فيه من بعيد ، ولايرى فيه من قريب ، وهو ـ مع ذلك ـ يدركه كل الإدراك . فإذا ماحاول أن يفتح فاه ، ليسأل عن حقيقة ماهو فيه ملأت بعض حقيقته فمه ، ولكنها ـ بذلك ـ تعجزه عن التعبير .

فـى فمـى مـاء وهـل ينطـق مـن فـى فيـه مـاء ؟!

تلك هى الحياة : نعيش فيها ، ونحس آثارها ، غير مدركين أسرارها ولا عارفين حقيقتها !!

الحياة . ما الحياة . وما أدراك ما الحياة ؟

مدة محدودة ، وأيام معدودة ، يقطعها الإنسان ـ بين مستهله ومماته ـ موضوعا للقدر المقدور ، مجهودا فى تحصيل قوته ، منهوما فى تحقيق مطالبه ، مفزّعاً بين حادث يلمّ ، وفاجعة تُهم ، مفرّحا بأمل يتحقق ، وغاية تدرك ...

الحياة هى الحلوة الخَضرة ، التى يحبها من يحبها ، ويغلو فى حبها ، ويعشقها من يعشقها ، ويفنى عمره فى عشقها ، حريصا عليها ، مستهاما بها صبا .

نحب الحياة حتى نكره فراقها !

ونكره الحياة حتى نمل المقام فيها !

نعظمّ الحياة ، ونحقرها

نحقر الحياة حتى نقول : إن الحياة لا تساوى شيئا

ونعظم الحياة حتى نقول ، ونؤكد ما نقول : إن شيئا لا يساوى الحياة !

من أجل الحياة نقوم ، ومن أجل الحياة نعمل ، ومن أجلها نصادق ، ومن أجلها نخاصم ، ومن أجلها نجمع ، ومن أجلها ننفق ، ومن أجلها نجبُن ، ومن أجلها نشجُع .

كل ذلك والحياة ترقبنا بعين يقظى ، وسن ضاحكة ، ونظرة مشفقة تنادى بملء فيها ما أشد غفلتكم ، وما أكثر غروركم ...

قد نادت الدنيا على نفسها   لو كان فى العالم من يسمع

كـم واثـــق بالعمـــر خيّبته   وجـــامع بـــدّدت مايجمـــع

تلك هى الحياة !

فما الإنسان ؟

هل هو ذلك الجسم الذى يولد ، ويخضع لقانون النماء والتغير ، ثم يموت فلا يذكر إلا حين موته ، ثم يمضى دهر فينسى ؟

كل من مات سها الناس عنه   ليس بين الحى والميت وُدّ

إن كان ذلك شأن الانسان فما أهون شأنه ، وما أقل خطره ، وما أشد ضآلة حياته وموته !

لو كان الإنسان ذلك الكائن الذى يحيا حينا ، ثم يموت كأن لم يَغْن بالأمس ـ لوكان كذلك لفَضَله الفرس بقوته ، والجمل بضخامته ، والنملة بدأبها ، والنحل بشهده .

ولكن نظرة فى تاريخ الإنسان ، منذ جاء إلى هذا الوجود عاريا يخصف على نفسه من ورق الشجر ، ومنذ كان هذا الوجود مستترا بأسراره مستخفيا بقوانينه ، ثم نظرة إلى هذا الإنسان اليوم ، وإلى الوجود ، وقد أحدث فيه الإنسان ماأحدث ، إن نظرة كهذه تؤكد أن الإنسان شىء آخر ، ليس مجرد ذلك الجسد ، الذى يولد ، فتهش له القلوب ، ثم يموت ، فلاتعبأ به الحياة !

إن هذه النظرة لتؤكد أن الإنسان ليس مجرد (شىء) قد كان ، بل إنه شىء يلزم أن يكون !

إذاً ، لماذا يموت ؟

ونحن لا نورد هذا السؤال ـ فى الغالب ـ إلا عندما تهزنا حادثة من حوادث الدهور ، أو هزة من هزات الفكر ، أو فاجعة من فواجع الموت .

فالموت هو الذى يخلع على الحياة معناها !

والموت هو الذى يجعلنا نحس معنى الحياة !

ولولا الموت ماعرفنا الحياة !

ولولا الموت لما سألنا : ما الحياة ؟ وما الموت ؟ وما صلة الإنسان بالحياة والموت ؟

ولك أن تتصور حياة بلا موت لتتصور آمالاً قد خمدت ،

وهمماً قد فترت ، وأعمالا أُجِّلت ... فما دامت الحياة بلا موت ، فلِمَ التعب واللغوب ؟ ولم السعى والدءوب ؟ فما لاتدركه اليوم تدركه غدا ، أو بعد غد ، وما لاتعمله فى سِنَتِك تعمله فى سَنَتك .

ولك أن تتصور حياة بلا موت لتتصور حياة قد أوسعها الناس ملالا ، وأوسعتهم كلالا ، وأصم أسماعهم زئاط الحياة وصخب الناس ، حتى تمنوا الفرار ، ولا فرار .

والموت أحد طرفى ظاهرة لا بد أن تتم :

فمن ولد لا بد أن يموت

وبين الحياة والموت نهر يسير بك ، وتسير به

وبين الحياة والموت طريق يطول أو يقصر ، وليس فى استطاعتك أن تطيله ، وليس فى استطاعتك ـ محقا ـ أن تقصِّره !

وليس فى استطاعتك أن توجد من لم يولد وليس فى استطاعتك أن تدفع الموت عمن ولد !

لقد جئنا إلى الحياة غير مخيَّرين

ونفارق الحياة غير مختارين

ففيم الجزع من فراق مالم نختره ، ولقاء ماليس منه بد ؟

ذلك لتعلق المرء بكله بالحياة ، وعدم علمه ، وعمله لما بعد الموت ، ولجحوده ، أو غفلته عما بعد الموت . وإن ذكره لم يستوعب حقيقته ، وأخذه ـ كعادته فى تناول الأشياء ـ من جانب مايهوى ، أو يخاف .

فكلمة الموت لها معنى فى نفوسنا ، ولها معنى فى نفسها

والإنسان يميل إلى مافى نفسه ..ومعنى الموت فى نفوسنا هو ذاك المعنى الإنسانى المحدود بزمانه ومكانه . وما كان محدودا بالزمان والمكان لم يدرك من الأشياء حقائقها ، ولا يرى من الحياة إلا ظاهرها .

والموت بهذا المعنى الإنسانى **فراق** : فراق المرء عما ألف ، وفراقه إلى غير مألوف . وفراق الراعى عن رعيته ، والأم عن فراخها ، والأب عن أولاده ، والمحب عن حبِّه ...

ومن هذا المعنى يأسى من يأسى ، ويَهدُّ الفراقُ مَن يحزن .
ولكن ماذاك كل حقيقة الموت !!
فما خلق الإنسان ليموت ، كلا ، ولا لينتهى !

خلق الناس للبقاء فضلّت أمةٌ يحسبونهم للنفاد

إن الموت فى **معناها الإلهى** : عودة الفرع إلى الأصل ، وعودة المخلوق إلى خالقه ، والمربوب إلى ربه ، والعبد إلى سيده ومولاه . وانتقال من دار الفرار إلى دار القرار . إن الموت ـ فى حقيقته ـ بدء الحياة !

إن الموت ـ فى حقيقته ـ كاشف الغطاء عن حقيقة الحياة ، التى نحياها ، والحياة التى ننتقل إليها . إن الموت فى حقيقته كاشف الغطاء عن الخلود الذى لا يدركه فناء { وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ماكنت منه تحيد } سورة ق : ١٩ { إنا نحن نحى الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم } ٣٦ : ١٢ .

وبهذه النظرة (الشمولية) لمعنى الموت يستمر الإنسان فى وظيفته ، وتستمر الحياة على قانونها ؛ إن قانون الحياة والكون : التغير ، والنماء .

وبحَسَب هذا القانون المتفق والنظرة الإسلامية للموت ، يكون الناظر إلى الموت من وجهه (الإنسانى) مخالفا للإسلام ، معارضا لناموس الحياة . ذلك الناموس الذى لن يعبأ بحزنه ، ولن يتوقف عن مجراه تَأَسَاءً له وتعزية .

إذا كان (الموت) **فى الوجدان الإنسانى نهاية** ، فإنه فى الحقيقة الإلهية **بداية** ، فليكن عزاؤنا عن ذلك الوجدان الإنسانى فى تلك الحقيقة الإلهية الثابتة الباقية ، وليكن حديثنا عن الموت حديثا عن الحقيقة الموجودة الباقية الخالدة ، المشاهدة بحسنا ، لا مشاهدة (ماكان) بل مشاهدة (مايجب أن يكون) .

وهذه إحدى ثمار **الإيمان بالغيب** ، الذى يأباه كثير من قصار النظر محدودى الفكر ، المغرورين بالمادة فى صورتها المحسوسة !

إن هذا الوجود ، الذى نعيش فيه الآن ليس الوجه الكامل لحياة الإنسان ، كما أنه ليس المظهر الكامل لعلاقة الله بالكون ومَجْلى صفاته ، تعالى ، وأسمائه . إن حياة الإنسان ، والمظهر الكامل لصفات الله ، وآثارها فى الإنسان والوجود لا تتم بصورتها الكاملة إلا فى الحياة الآخرة .

إن **حتمية الموت** ـ بصورتها الإسلامية ـ رفعت عن المسلمين الأول (قلق الموت) ، ودفعتهم إلى العمل ، والأمل ، بكل قوى

النفس والجسم ، وكانت لهم باعثا حيا على زيادة شوق النفوس إلى الوجه الكامل للحياة ومجالى الصفات الإلهية فى صورتها التامة !

لقد كان (القدر) عامة ، وقدر الموت خاصة يَحثُهم تحثيثا على نشر الأمل ، وإتقان العمل ، وزيادة الجهد والاجتهاد فى عمل الخير ، وخير العمل .

ولما قرعت آذانهم ـ أول مرة ـ أحاديثُ الرسول ، صلى الله عليه وسلم المقررةُ لسبق القدر ، الآمرةُ ـ مع ذلك ـ بالعمل تبادروا العمل ، وسارعوا إلى الخيرات ، وتنافسوا بذل المال والنفوس . ولهم فى ذلك عبارات تُعتبر دستوراً لمن يشغله البحث النظرى عن علاقة القدر الإلهى بالاختيار الإنسانى . من ذلك قول بعض الصحابة : ماكنت أشد اجتهادا منى الآن . وقال أبوعثمان النهدى لسلمان : لأنا بأول هذا الأمر أشد فرحا منى بآخره . يقصد بأوله ماقررته الأحاديث من سبق القدر وقدمه ، ويقصد بآخره ما أمرت به الأحاديث من العمل ووجوبه ، مع هذا السبق والقدم . وقال بعض السلف : والله ما أحب أن يجعل أمرى إلىّ ؛ إنه إذا كان بيد الله خيرا من أن يكون بيدى[1] .

وبهذا (المنهج) جمعوا بين النظر العقلىّ ، أو ، بتعبير الشرع ، بين الإيمان بالغيب وبين الامتثال العملى . فأنجاهم هذا

(١) قال الإمام إبراهيم بن إسحاق الحربى : أجمع عقلاء كل أمة أنه من لم يَجْرِ مع القدر لم يتهنأ بعيشه .

المنهج الإسلامى من (قلق الموت) والخوف منه . كما أنجاهم من (الشك) الذى يكون ثمرة التعمق فى البحوث النظرية الصرفة . وكما أنجاهم من (التشاؤم) الذى يكون ثمرة الإفراط فى المذاهب الحسية الصرفة .

لم يكن الموت ـ فى منهجهم ـ (عدم الحياة) فيكون أمرا سلبيا ، لا يكون **تعريفه** إلا بالسلب ، وبذلك يكون حصوله **عدما** ، ويكون حصوله فوتا للحياة بما فيها من متع ورغائب . ويكون الميّت هو من فارقته الحياة .

وبهذه المعانى **السلبية** للميت والموت تكون الحسرات على الميت ، ويكون القلق من الموت ، ويكون الهم والحزن على العدم والفوت .

لم يكن أمر الموت ، ولا حقيقته عندهم كذلك ، بل كان عندهم ، ومازال فى شرعهم **أمرا وجوديا** أَمْكَنَ فى الوجود من هذه الحياة ، فالموت ليس عدم الحياة ، بل هو : صفة وجودية تضادّ الحياة ، والتقابل بينه وبين الحياة من تقابل الضدين . قال الله . { الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا } الملك : ٢ (والخلق) يتعلق بموجود لا بمعدوم ، ولعل فى تقديم الموت على الحياة فى الآية الكريمة ما يزيد فى حقيقة الوجودية فى الموت ، مع دلالة كلمة (خلق) على هذه الوجودية .

لقد أسقط هذا الفهم الإسلامى للموت والحياة : الشك والتشاؤم . **وأسقط** ، أيضا ، من حياتهم السؤال : ماقيمةُ الحياة ؟

بل لم يوجد هذا السؤال فى حياتهم . لم يوجد ، ليس لأن حياتهم كانت كلُّها ترفا ونَعْمة كانوا فيها فاكهين ، يكون هذا الترف والنَّعْمة جوابا عن ذاك السؤال . إنما لم يوجد لسقوط السؤال فى ذاته ، لا لوجود الجواب عنه !

لم تكن حياتهم نعما وسعادة تكون جوابا للسؤال عن قيمة الحياة ، إنما كانت حياتهم جهادا ، وجهدا ، وجوعا ، عبّر عنه نبيهم يوم بدر ، إذ قال : اللهم إنهم جياع فأطعمهم عراة فاكسهم . ولكن تربيتهم بمنهج الإسلام الاعتقادى العملى علمتهم أن الحياة نفسها قيمة غالية وأنها مقدمة ضرورية للحياة الأخرى ، فزرعوا مساحتها الزمنية بأنواع الخير وغرسوا فى مساحتها المكانية أنواع الفضل ، وأثْروا منابتها بفنون الفضائل .

حب الحياة ، وكراهية الموت طبيعة بشرية ، بل طبيعة الكائن الحى ، من نبات وحيوان ، حتي الحشرات منه وقد عبر القرآن عن ذلك علي لسان نملة ، عندما خشيت على قريتها من جند سليمان فنادت فى واديها قائلة { يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون } النمل : ١٨ . هذه طبيعة الكائن الحى ، ولكن المنهج الإسلامى سما بأهله فحبب إليهم الموت ! وقد عبر عن ذلك خالد لقائد الفرس والروم ، عندما بعث إليهم يقول : جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة ! إذا كانت كراهية الموت طبيعة ـ ولا لَوْم ـ فقد جعل منهجُ الإسلام أهله فى طبيعة أخرى : جعل **حب الموت طبيعة ، وحب مابعد الموت إرادة .**

لقد كان هذا المنهج الإسلامى ، ومازال ، خير جواب عن السؤال الذى حيّر الفكر البشرى عن قيمة الحياة !

لقد كانت استجابتهم للحياة والموت استجابة سوية : لم يبتذلوا أنفسهم فى ملاذّ الحياة ، ولم يُعلّهم الموت ، ويقتلهم هما وكمدا . حتى موت الولد ! قال الإمام علىّ ، يعزىّ الأشعث بن قيس عن ابن له : يا أشعث ، إن تحزن على ابنك فقد استحقت منك ذلك الرحم ، وإن تصبر ففى الله من كل مصيبة خَلَف . يا أشعث ، إن صَبرَت جرى عليك القدر وأنت مأجور ، وإن جَزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور . يا أشعث ، ابنك سَرّك ، وهو بلاء وفتنة . وحَزَنك وهو ثواب ورحمة » .

والخنساء ، التى أثْرت الشعرَ الجاهلىّ بكاءً على أخيها من أبيها ، وكاد يقتلها الأسى عليه ، لولا تعزيها بعموم المصيبة :

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

هذه هى التى قالت عند ما جاءها صوت النعىّ بأولادها الأربعة بعد معركة القادسية : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو أن يجمعنى الله بهم فى مستقر رحمته !!

فلينظر ذلك المنهج وآثاره أولئك الذين جعلوا الموت فجيعة لا تنتهى آثارها ، وابتدعوا لها مراسم وطقوسا ينكرها الإسلام ، وتأباها طبيعة منهجه ! ثم لينظر ذلك المنهج ، وليتدبر آثاره فى عمارة الحياة أولئك الذين يلْوُون الإسلام عن حقيقته ، ويتأولون جهاده . وأولئك الذين يريدون أن يفهَموا الإسلام وأن يُفهموه

عبادةً محبوسة فى الضمائر والشعور ، مقطوعة عن الحياة والعمل والأمل .. لحاجات فى نفوسهم أعظمها كراهية الإسلام والخوف من حيويته وبعثه ، والجهل بحقائقه ، والتأثر بمناهج أعدائه ...

تلك مقالة يسيرة اقتضاها المقام ، لعل فيها عبرة للمفرطن والمفرطين ، نختم جوهرها بوصف حال واحد من ذلك الرعيل الأول ، الذى تربى على مائدة ذلك المنهج الإسلامى منذ فجره : بلال ابن أبى رباح ، الذى عُذّب فى الإسلام عذابا لم يعذّبه أحد ، وأوثق فيه وثاقا لم يوثقه أحد . ثم عاش فى نور الإسلام وقد أخذ يبدد ظلام الدنيا ، ثم أدركته الوفاة ـ أقول : لقد كان بلال يمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان فيقول : أحد أحد ! وعند مماته كان يمزج مرارة الموت ، وسكراته بحلاوة اللقاء فيقول : غدا ألقى الأحبة محمدا وصحبه !!

اقترب للنـاس حسابهم

الموت ، إذا حق لا باطل فيه ، ويقين لاشك فيه . ومابعده حقائق ستعرض للعيان . وساعته محددة عند الله ، قريبة الأجل ، قد تفجأ صاحبها على غير توقع ، وتأتيه وآماله ممدودة ، ودعاؤه عريض { ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمّون . فلايستطيعون توصية ولا إلا أهلهم يرجعون . ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون } ٣٦: ٤٩ ـ ٥٢ { اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون } ٢١ : ١

وفى الحديث : لما نزل قوله تعالى : (اقترب للناس حسابهم) تناهى أهل الضلالة قليلا ، ثم عادوا إلى عكْرهم . أى إلى أصل مذهبهم الردىء ، وأعمالهم السوء .!

ومن الآية الكريمة صَاغَ أبو العتاهية قوله :

الناس فى غفلاتهم ورحى المنية تطحنُ

وما يزال الغافل عن مصيره سادراً فى غفلته ، مُزْوَراً عن مآبه حتى يخطفَه طائر الموت فإذا هو مُبْلس ، أو تأتيه غاشية من غواشيه ، فيندم على ما فرّط فى جنب الله . وفى حياة أبى نواس ومماته عبرة لمن تذكر ، إذ قال ، وقد حضرته ميّته :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم   وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت مابلـغ امرؤ بشـبابـه   فإذا عصـارة كل ذاك أثـام[1]

تلك حقائق لا يحتاج الغافل عنها إلا التذكير ، وبديهات لايحتاج منكرها إلا إلى التنبيه .

وقد تضمن المنهج الإسلامى نماذج اعتقادية ، وعملية لإعداد المسلم لهذا اليوم ، لو تتبعناها لسطرت كتبا ، وبالإجمال فإن كل عقائد الإسلام ، وعباداته ، وآدابه ، وإخباراته ... كلها فى سبيل إعداد المسلم لهذا اللقاء ، بمنهج يقذف به فى غمرات هذه الحياة ، ليعمرها خيرا ، وبرا ، وصلاحا .. وليس ليمقتها ، ؟أو يتجافى عنها ، وينعزل فى زوايا النسيان ، طلبا لتلك الحياة الآخرة .

وأكتفى ، ههنا من هذا المنهج الإسلامى بنموذجين ، أحدهما قولى ، شارح لمنهج الإسلام فى هذه التربية فى الدنيا . والآخر نموذج يعرض بعض مشاهد اليوم الآخر وصلة مشاهده باليوم الأول ، وآثار أعماله فى تلك المشاهد :

الأول :

ورد فى الحديث : إن للقيامةِ ألفَ هول . أدناها سكرات الموت . وإن للموت تسعةً وتسعين جذبة ، لألفُ ضربة بالسيف

(١) نهز بالدلو فى البئر : ضرب بها في الماء لتمتلىء ، يعنى أنه تبع الغواية والغواة وسلك مسلكهم وأسام الإبل أرسلها للرعى ، يعنى أنه ترك نفسه لهواها . فما استفاده من كل ذلك هو الإثم والذنب .

أهونُ من جذبة منها . فمن أراد أن ينجو من تلك الأهوال فليقل عشر كلمات خلف كل صلاة . قالوا : يارسول الله وما الكلمات ؟ قال :

١ ـ أعددت لكل هول ألقاه فى الدنيا والآخرة : لا إله إلا الله .
٢ ـ ولكل هم وغمّ : ماشاء الله .
٣ ـ ولكل نعمة : الحمد لله .
٤ ـ ولكل رخاء وشدة : الشكر لله .
٥ ـ ولكل أعجوبة : سبحان الله .
٦ ـ ولكل ذنب : أستغفر الله .
٧ ـ ولكل مصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون .
٨ ـ ولكل ضيق : حسبى الله .
٩ ـ ولكل قضاء وقدر : توكلت على الله .
١٠ ـ ولكل طاعة ومعصية لاحول ولا قوة إلا بالله .

وقد كان أبى ـ رحمه الله ـ شديد المحافظة على هذه العشر ، وقد كان علمى بها أول علم بطريق سماعى منه . والحديث مذكور بتمامه ـ فى مناسبته ـ فى كتاب : فتح العلام بشرح مرشد الأنام للشيخ محمد عبد الله الجردانى ١ :٧٧ .

كما كان دائم المحافظة على (صلاة الغفلة) ، وتسمى صلاة الأوابين . ووقتها بعد صلاة المغرب وسنته إلى مغيب الشفق الأحمر . وأقلها : ركعتان ، وأوسطها : ست ، وأكثرها : عشرون . ذكرها فى فتح العلام ١ :١٩٨ ـ ١٩٩

وهذه الصلاة وردت تفسيرا لناشئة الليل المذكورة فى سورة المزمل ولقوله فى سورة السجدة { **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** } ، ولقوله فى سورة الذاريات { **كانوا قليلا من الليل ما يهجعون** } .

وورد فيها أحاديث كثيرة ، ذكرها فى فتح العلام ، وخرجها الشوكانى فى الجزء الثالث من نيل الأوطار . ومما ذكره فتح العلام : من أحب أن يحفظ الله عليه إيمانه فليصل ركعتين ، بعد سنة المغرب ، يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب ، وقل هو الله أحد ، ست مرات ، والمعوذتين مرة . فإذا سلم رفع يديه وقال ، بحضور قلب : اللهم إنى أستودعك إيمانى فى حياتى وعند مماتى ، وبعد مماتى ، فاحفظه علىّ ، إنك على كل شئ قدير ، ثلاثا .

وينوي بها : سنة صلاة الأوابين ، أو سنة صلاة الغفلة . وكان أبى - رحمه الله ينوى بها : سنة الغفلة مع سنة مؤنس القبر . وصلاة مؤنس القبر ذكرها فى فتح العلام ١ : ٢٠٢ ولم يعزها إلى مصدر . لكن جاء فى حاشية الشيخ أحمد الميهى ، على شرح الستين مسألة للرملى ص٧٧ : ذكر فى نزهة المجالس ، عن كتاب المختار ومطالع الأنوار ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : لا يأتى على الميت أشد من الليلة الأولى ، فارحموا موتاكم بالصدقة ، فمن لم يجد ، فليصل ركعتين يقرأ فى كل ركعة منهما فاتحة الكتاب ، وآية الكرسى ، وألهاكم التكاثر ، وقل هو الله أحد ، إحدى عشرة مرة . ويقول : اللهم إنى صليت هذه الصلاة ، وتعلم

ما أريد اللهم ابعث ثوابها إلى قبر فلان بن فلان ...

قلت : ولا شك فى انتفاع الميت بالصدقة ، والدعاء ، أما الصلاة ، والصيام وقراءة القرآن ففيها خلاف كثير . وقد انتصر للانتفاع بها الإمام ابن القيم فى كتابه : الروح ، وأفاض كثيرا فى محاجة المانعين . وقد عقب على مارأي ، وبالغ فى نقد رأيه الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار ٨ : ٢٥٤ .

هذا ، وقد عاينت وأهلى معى ، بعض آثار هذه الدعوات ، والصلوات فى ثلاثة الأيام التي احتُضر فيها والدى : فقد انتهى من صلاة الغفلة ، وكان من عادته ـ كما هى السنة ـ أن يظل ذاكرا قارئا إلى أن تأتى العشاء الآخرة . غير أنه فى الليلة الأولى من ليالى احتضاره ، طلب ـ بعد صلاته صلاة الغفلة ومؤنس القبر ـ أن ينام . فكان ذلك بدء غيبته عن الوعى ثلاثة أيام . كان خلالها يسأل أمى : هل أذن للظهر ؟ هل أذن للعصر ... فإذا قالت نعم ، قام بأعمال الوضوء ، ثم تناول منديله ، يستنشف فإذا سألته : ماذا تفعل ؟ قال : أجفف ، ألم أتوضأ ؟! كل ذلك وهو على سريره ، لم يفارقه ، وكله وهو فى غيبوبة الاحتضار ، إلى أن فارقته روحه فى يومه الثالث !!

ذكرتُ ذلك برهانا واقعا على نفع ما أشرت إليه مما أرشدت إليه الأحاديث !

الثانى :

حديث سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة بن جندب

قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، وكنا في صفة بالمدينة ، فقام علينا فقال : إني رأيت البارحة عجبا :

١ ـ رأيت رجلا من أمتي أتاه ملك الموت ليقبض روحه ، فجاءه بره بوالديه فردّ ملك الموت عنه .

٢ ـ ورأيت رجلا من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر ، فجاءه وضوؤه فاستنقذته من ذلك .

٣ ـ ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الشياطين ، فجاءه ذكر الله ، عز وجل ، فطرد الشيطان عنه .

٤ ـ ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب ، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم .

٥ ـ ورأيت رجلا من أمتي يلتهب ، وفي رواية : يلهث عطشا ، كلما دنا من حوض منع وطرد ، فجاءه صيام شهر رمضان ، فأسقاه وأرواه .

٦ ـ ورأيت رجلا من أمتي ، ورأيت النبيين جلوساً حَلَقا حَلَقاً ، كلما دنا إلى حلقة طرد ، فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي .

٧ ـ ورأيت رجلا من أمتي بين يديه ظلمة ، ومن خلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة ، وعن يساره ظلمة ، ومن فوقه ظلمة ، ومن تحته ظلمة ، وهو متحير فيها . فجاءه حجه وعمرته ، فاستخرجاه من الظلمة ، وأدخلاه في النور .

٨ ـ ورأيت رجلا من أمتى ، يتقى بيده وهج النار وشَرَرَها ، فجاءته صدقته ، فصارت سترة بينه وبين النار ، وظللت على رأسه .

٩ ـ ورأيت رجلامن أمتى يكلم المؤمنين ولا يكلمونه ، فجاءته صلته لرحمه ، فقالت : يا معشر المسلمين ، إنه كان وَصولا لرحمه فكلموه . فكلمه المؤمنون ، وصافحوه وصافحهم .

١٠ ـ ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الزبانية ، فجاءه أمره بالمعروف ، ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم ، وأدخله فى ملائكة الرحمة .

١١ ـ ورأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه ، وبينه وبين الله عز وجل حجاب ، فجاءه حسن خلقه ، فأخذ بيده فأدخله على الله ، عز وجل .

١٢ ـ ورأيت رجلا من أمتى قد ذهبت صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله عز وجل ، فأخذ صحيفته ، فوضعها فى يمينه .

١٣ ـ ورأيت رجلا من أمتى خف ميزانه فجاءه أفراطه[١] فثقّلوا ميزانه .

١٤ ـ ورأيت رجلا من أمتى قائما على شفير جهنم فجاءه رجاؤه فى الله عز وجل ، فاستنقذه من ذلك ومضى .

---

(١) جمع فَرَط ، والمراد : من مات له من الأطفال

١٥ - ورأيت رجلا من أمتى قد أهوي فى النار ، فجاءته دمعته ، التى بكى من خشية الله ، عز وجل ، فاستنقذته من ذلك .

١٦ - ورأيت رجلا من أمتى قائما على الصراط يُرْعَدُ كما تُرْعَد السَّعَفَة فى ريح عاصف ، فجاءه حسن ظنه بالله ، عز وجل . فسكّن رعدته ومضى .

١٧ - ورأيت رجلا من أمتى يزحف على الصراط ، ويحبو أحيانا ، ويتعلق أحيانا ، فجاءته صلاته علىّ فأقامته على قدميه ، وأنقذته .

١٨ - ورأيت رجلا من أمتى ، انتهى إلى أبواب الجنة ، فغلّقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة ألا إله إلا الله ، ففتحت له الأبواب ، وأدخلته الجنة » .

قلت : ذكره ابن القيم فى كتابه (الروح) وخرّجه . وقال عنه فى كتابه الوابل الصيب رواه الحافظ أبو موسى المدينى فى كتاب (الترغيب فى الخصال المنجية ، والترهيب من الخلال المردية) وبنى كتابه عليه ، وجعله شرحا له ، وقال : هذا حديث حسن جداً ، وراوه عن سعيد بن المسيب عمرو بن آزر ، وعلى بن زيد بن جدعان ، وهلال أبو جبلة . قال : وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ، قدّس الله روحه ، يعظم شأن هذا الحديث ، وبلغنى عنه أنه كان يقول : شواهد الصحة عليه .

قلت : والحديث جانب واسع من منهج الإسلام فى التربية

الإسلامية ، وعمارة الآخرة بأعمال الدنيا ، وبيان للوسائل العملية والاعتقادية التى تنجى صاحبها من أول خطاه إلى أخراه . لكن مما يلزم بيانه ـ لتكتمل الصورة الإسلامية ـ أن هذا الحديث ، وأمثاله تتكلم عن (المقتضى) للنجاة . وهناك النصوص الأخرى التى تتكلم عن (المانع) من النجاة ، كقوله تعالى : (ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد منّاع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد) : ٥٠ : ق : ٢٣ـ٢٦ . والحكم لايتحقق إلا بتحقق مقتضيه ، وانتفاء مانعه ، فمن أراد النجاة من عذاب الله ، أو تحدث عنها ، واجب عليه أن يوضح جانبى الصورة ، ويبين مراد الشرع فى اكتساب المقتضيات وانتفاء الموانع ، ليتحقق له حكم الله القدرى والشرعى ، فلا يغتر غافل بذكر (المقتضى) والسكوت عن (المانع) !!

قضايا أربع

جمع الله أطراف موضوعنا هذا كلّها فى أربع جمل ضمتها آية واحدة من كتابه الكريم ، حيث قال { كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور } آل عمران : ١٨٥

١ ـ { كل نفس ذائقة الموت } :

موت النفوس هو : مفارقتها لأجسادها . وهذا معنى ذوقها الموت وليس بمعنى أنها تصير عدما محضا .

وهذا حُكم قدرى كونى تكوينى ، يشهد به العيان ، وتنطق به

طبيعة تكوين كل ذي حياة ، وينادي به على نفسه كل مخلوق .. فليرجع كل أحد إلى نفسه ؛ ليسألها : هل يستطيع أن يدفع عن نفسه الموت ؟

وهو حكم شرعى قدر الله له قدرا معلوما ، إذا جاء لا يستأخر عنه إنسان ، ولا يستقدم .

حتى المقتول ، ميت بأجله ، أى موته كائن فى الوقت الذى علم الله تعالى فى الأزل ، وقدر حاصل بإيجاد الله تعالى ، من غير صنع للعبد لا مباشرة ولا توليدا . حتى قال أبو الهذيل : إنه لو لم يقتل لمات البتة . فليس القاتل قاطعا لأجل قدره الله ، ولا مغيّرا لأمر علمه ، وقد أبان قتله أن الله علم موته فى ذلك الوقت ففى المقتول معنيان : قتلٌ ، هو من فعل القاتل ، وموتٌ ، هو من فعل الله تعالى . وبالمعنى الأول فى المقتول استوجب القاتل الذم والعقوبة . فالأجل ، بمعنى : آخر العمر ، واحد ، لا يقبل الزيادة ولا النقصان .

فلينظر المتعلقون بالدنيا ، الحريصون على حياة : هل يستطيعون أن يدرءوا عن أنفسهم الموت ؟!

فى المسند ، من حديث البراء بن عاذب قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى جنازة رجل من الأنصار . فانتهينا إلى القبر ، ولمّا يُلْحَد . فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجلسنا حوله ، كأن على رءوسنا الطير ، وفى يده عود ينكت به الأرض ، فرفع رأسه فقال : استعيذوا بالله من عذاب القبر (مرتين

أو ثلاثا) ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان أهل الجنة ، وحنوط[1] من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مَدّ البصر . ثم يجىء ملك الموت ، حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : اخرجى أيتها النفس المطمئنة إلى مغفرة من الله ورضوان . فتخرج ، تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء ، فيأخذها . فإذا أخذها لم يدعها فى يده طَرْفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن ، وفى ذلك الحنوط . ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرّون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأحسن أسمائه التى كان يسمونه بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا ، فيستفتحون له فيفتح له ، فيشيْعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التى تليها ، حتى يُنتهى بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ؛ فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فتعاد روحه ، فيأتيه ملكان ، فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله عز وجل . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول دينى الإسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هو محمد رسول الله . فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله عز وجل ، فآمنت به ، وصدقت .

(١) الحنوط : مايخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة .

فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى ، فافرشوا له من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة . فيأتيه من روحها ، وطيبها ، ويُفسح له فى قبره مَدَّ بصره . ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت تُوعَد . فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجئ بالخير . فيقول : أنا عملك الصالح . فيقول : رب أقم الساعة ، ثم رب أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

قال : وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه ، معهم المسوح[1] فيجلسون منه مدّ البصر ، ثم يجىء ملك الموت ، حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب . قال : فتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السَّفّود[2] من الصوف المبتل ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعها فى يده طرفة عين ، حتى يجعلوها فى تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وُجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا ، فيستفتح فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، { لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج

---

(١) جمع مسْح : ثوب من الشعر غليظ (٢) سيخ يشوى به اللحم .

الجمل فى سم الخياط } ٧: ٤٠ فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه فى سجّين ، فى الأرض السفلى ، فتطرح روحه . ثم قرأ : { ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق } ٢٢: ٣١ فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه ، هاه ، لا أدرى . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه ، هاه ، لا أدري . فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بُعث فيكم ؟ فيقول : هاه ، هاه ، لا أدرى . فينادى مناد من السماء : أن كذب عبدى ، فافرشوا له من النار ، وافتحوا له بابا إلى النار ؛ فيأتيه من حرّها وسَمومها ، ويُضيَّق عليه قبره ، حتى تختلف أضلاعه . ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح . فيقول : أبشر بالذي يسوءك ، هذا يومك الذى كنت توعد . فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجيء بالشرّ . فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : رب لا تقم الساعة » .

بهذا المشهد المعبر عن هذا الحكم بوجهيه القدري والشرعى آذن الله تعالى ، البشرية ، فى مسالكها المتنوعة ، واتجاهاتها المتناقضة ، ومساربها فى نهارها ، واستخفائها فى ليلها ـ آذنها بذاك المصير الذي حَتَّمه عليهم . كما آذنهم بأن بيده المنايا والحتوم[1] ، كما نعى إلى كل أحد نفسه ، فمفلح قد زكّاها ، وخاسر قد دسّاها !

وتقرير هذا الحكم بوجهيه القدري والشرعى ـ إيقاظ للنفوس

(١) جمع حَتْم : وهو القضاء

من غفلتها وكشف للغطاء عن مصيرها ، ومشاهده التى صورها الحديث . كما فيه بيان لزيف غرور النفوس بما لها ، واغترارها بحياتها ومتعها .

وتقرير هذا الحكم بوجهيه زجر للكافر عن كفره ، وللفاسق عن فسوقه ، وللعاصى عن عصيانه ، وللمغرور بقوته ، وماملك ، وللمغتر بما هو فيه .. إنه إن ظن ـ اغتراراً ـ أنه لا يفارقه ما به اغتر فلسوف يفارق المغترّ ـ فلينظر : هل يستطيع أن يدرأ عن نفسه الموت ؟

وتقرير هذا الحكم فيه حث للمؤمن على الاستزادة من الإيمان ، ومن أعماله ، وابتدار الخيرات فى مواقعها ، قبل زفرات الحسرات . كما فيه بث لروح القوة والتحمّل ، وروح الفضل والتجمّل وتجرىء له على اقتحام العقاب[1] واحتمال الشدائد والصعاب ، وطرح نفسه فى معترك الدعوة والجهاد . إنها لساعة معينة ، قد خطها القدر ، وليس فى مقدور أحد أن يتفلّت منها ، ولا أن يقدمها أو يؤجلها ، فمن لم يمت بالسيف فى ساحات الوغى مات حتف أنفه فى بحبوحة الحياة، فى لحظته الموقوتة بأجلها !

٢ ـ { وإنما توفون أجوركم يوم القيامة } :

وهذه القضية خبر شرعى ، وعقلى . قطع بعقليته القضية السابقةُ عليه : { كل نفس ذائقة الموت } ، وكانت منه كالمقدمة

(١) جمع عقبة .

للنتيجة : إننا نشاهد من أهل الكفر ، والجحود والفجور ، وكثير ممن هم على أمتهم ـ مَن يموتون ، ولا ينالهم جزاء ما أثموا . كما نشاهد من أهل الإيمان والخير والوفاء والبر والدعوة .. من يموت ولم يسعد فى حياته بثمرة صلاحه وإصلاحه .

والعقل قاض بعدم التسوية بين الأمتين . فلو لم تكن هناك حياة أخرى ، يجازى فيها العاصى على عصيانه ، ويجزى فيها الطائع بطاعته فما أسعد الأشرار ، وأتعس الأخيار : فقد عاش الأشرار حياتهم يتمتعون بشرورهم ، وينعمون بأهوائهم ، ويلتذون بزهرة الحياة الدنيا ، ويعبثون ـ بسلطانهم وتسلطهم ـ على أهل الخير ، والمستضعفين .. وانتهت حياتهم وما استمتعوا به بموتهم . ولا شىء بعد ذلك ؛ إذ الغرض أنه ليس إلا حياتهم الدنيا !

كما عاش الأخيار مجاهدين فى تحصيل ما يرقيهم ، وينفع غيرهم .. صابرين على البأساء والضراء ، مصابرين ـ فى جهادهم ـ أعداء الحق ، والخير ، والفضيلة .. ثم انتهت حياتهم وما قاسَوْا ، بموتهم ، لم ينالوا ثوابا ، ولم يجزع لشقوتهم أحد ، ثم لا شئ بعد ذلك ؛ إذ الغرض أنه ما هى إلا حياتهم الدنيا وما هم بمبعوثين .

إن كان الأمر كذلك فما أسعد الفجار بفجورهم ، وما أشقى الأخيار بخيرهم !! كلا ، ما هكذا يقضى العقل ، وما هكذا قضى الشرع { وإنما توفون أجوركم يوم القيامة } فليمض الأخيار على طريقهم ، وليكن الفجار عن سننهم فلابد من يوم { فمن يعمل

مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره } بهذا قضى الشرع ، وبه يقضى العقل { أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟! مالكم ؟! كيف تحكمون ؟! } ٦٨ : ٣٥ ـ ٣٦ .

وههنا مايجب التنبيه عليه :

ا ـ أن هذا الإخبار الشرعى ليس دعوة لأهل الخير بالاستسلام ، والرضا بالاستضعاف ، بل هو على عكس ذلك ، دعوة فى البقاء على نشر الخير والجهاد فى سبيله مجردا عن طلب الثواب الدنيوى . وهذا تجريد لعمل الخير من شوائب النفس . ومع ذلك فهم على وعد بشئ من ثواب الدنيا { من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون } النحل : ٩٧ .

ب ـ وهذا الخبر ، كذلك ، ليس دعوة للأشرار للاستمرار على شرهم ؛ لأن عقابات الله شرعية تخص المذنب ، وقدرية تعم إذا فشا المنكر { ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون } السجدة : ٢١ { فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر . لو كانوا يعلمون } الزمر : ٢٦ .

وقد تضمن ذلك تعبير القرآن بقوله { وإنما توفون ..} فكلمة : التوفية تزيل توهم أنه لا عقاب ولا ثواب قبل يوم القيامة ؛ لأن المعنى : أن توفية الأجور على الطاعة والمعصية ، وتكميلها يكون يوم القيامة ، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور .

جـ ـ وأن هذا الإخبار جانب من جوانب المنهج الإسلامى فى تنشئة الفرد ، وتربية الجماعة ، يعلم منه أن أحد وجهى حياة الإنسـان لا بد أن تتصـارع فيه القوى الخيرة وقوى الشر .. وأنه لا بد من حصول بعض الجزاء ، فى الدنيا : الوجه الأول لحياة الإنسان . مع التسامى بالمؤمن عن أن يجعل عمله للخير وسيلة لدنيا يطلبها لنفسه . بل يتمحض قصده إلى الله . ولسوف تأتيه بعض ثمار عمله فى الدنيا وعداً من الله الذى بيده مفاتيح الخير .

بهذه التربية واجه المسلمون الحياة ، فأقاموا للناس دنيا عامرة بالخير ، مجردة من الأثرة ، حافلة بالإيثار .

لقد قرر القرآن هذا الواقع البدهى ، والحكم الشرعى ، فى الموت والجزاء ، والإخبار العقلى بما يترتب على توفية كل عامل جزاء عمله فى حياة تعقب هذه الحياة ـ قرر القرآن هذه القضايا والأحكام فى ثلاثة مواضع كلها مقررة لها ، فى بداهتها ، وشرعيتها :

ـ **الموضع الأول** : فى سورة آل عمران ، وهو آيتنا التى نحن بصدد قضاياها الأربع { كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور } .

وكان سوق هذه الآية فى عرض وقائع غزوة أحد ، وما أصاب المسلمين فيها من قرح ، وشماتة المنافقين بهم { الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا . قل فادرءوا عن

أنفسكم الموت إن كنتم صادقين } . والحكم الإخبارى على قتلى المسلمين بأنهم { أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله } وتنبيه الكافرين الذين نالوا بعض النصر إلى أنه { إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب أليم } .. فى هذا السياق كله ـ بما فيه من تفصيل دقيق شامل ، لوقائع الحياة فى النصر والهزيمة ، واللذة والألم ، والفقر والغنى ، والسلطان والتسلط ، والخير والشر ، وتقلب الحياة بالمؤمنين على جميع وجوهها ـ جاء تقريره لهذه القضايا الأربع ، مبتدئاً بقضيتها البدهية { كل نفس ذائقة الموت } مثنيا بقضيتها العقلية { وإنما توفون أجوركم يوم القيامة } .

ـ **الموضع الثانى** : من سورة الأنبياء ، حيث يقول : { كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون } : ٣٥ . وذلك حيث عرض طرفا من سيرة أربعة عشر نبيا ، فى عشر قصص ، وما لاقوا من عناد قومهم وإيذائهم ، وما أصابهم من شدائد الحياة وشرورها ، وما تمناه الكفار للرسول صلى الله عليه وسلم ، من الموت ، وغفلتهم عن بداهة القضية { وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدين . كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون } يرجعون لتوفى كل نفس ما كسبت .

ـ **الموضع الثالث** : من سورة العنكبوت . وهى السورة التى قررت أن ابتلاء الله للناس سنته العامة ، وقانونه المطرد ؛ ليمتاز الذين صدقوا من الكاذبين ، والمؤمنين من الكافرين

{ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون } ثم ساق نماذج من الافتتان الذى يميز الصادق من الكاذب ، والمؤمن من المنافق .ثم قرر { كل نفس ذائقة الموت ، ثم إلينا ترجعون } .

وفى هذا الموضـع يقابل جزاء المؤمنـين بجـزاء الكافرين ، والمنكرين للحق ، الجاحدين رسالة الرسول ، المتعجلين لما وعدهم من عذاب الله ، استعجال إنكار واستهزاء { ويستعجلونك بالعذاب ، ولولا أجل مسـمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتـة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون . يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون . كل نفس ذائقة الموت ، ثم إلينا ترجعون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، نعم أجر العاملين . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون } .

لما أمر المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الأوطان ، ومفارقة المال والأهل والديار والإخوان ، فنبههم بقضية الموت والجزاء ، قضية الموت التى تتحقق فيهم فى أى مكان ، لايُقرّبها مَخُوف ، ولا يُبْعدها مأمن ، فلا مسوّغ ، إذا مع هذه القضية البدهية المشـاهدة ، إلى القعـود فى دار الشـرك ، واحتمـال الإذلال والاسـتضعاف ، والتسـلط ، وعدم الحـرية ، بترك المـهاجـرة بالعقيدة ، والحرية فيها ، إلى مأمنها . فمادامت قضية الموت أمراً مقضيا فالأولى أن يكون ذلك فى سبيل الله ، وهو سبيل

الحق ، والعزة ، والحرية ... ؛ لتفوز - بعد الرجوع إليه بأجر المؤمنين الصالحين ، الذين فضلهم ، وجعل أجرهم فى مقابل ما ذكر من عذاب الكافرين : فبين أن للمؤمنين الجنات ، فى مقابلة أن للكافرين النيران وبين أن فى الجنة غرفا تحتها الأنهار ، فى مقابل أن تحت الكفار النار ، نارا تأتى من فوق ، على غير عادة النار الصاعدة ،ولا تطفأ بالدوس . وبيّن أن ذلك أجر عملهم بقوله { نعم أجر العاملين } فى مقابلة ما قال للكافرين : { ذوقوا ما كنتم تعملون } . **أرأيت كيف كانت هذه القضايا بمواضعها باعث عمل ، لا أداة تخدير ؟**

٣ - { فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز }

الزحزحة : تكرار الزّج . وهو الجذب فى عجلة .

والزحزحة لفظ دال بجرسه على معناه من مشقة النجاة . ودال ، ببنائه للمجهول على عجز الإنسان بنفسه عن تلك النجاة ، فهو لا يتزحزح ، وإنما يُزَحزَح . وأتم بيان ذلك بناء الفعل (أُدخل) فهذه النجاة ، وذاك الدخول أمران فوق قدرة الإنسان بذاته ، فليسا تزحزحا ودخولا ، إنما هما زحزحة ، وإدخال . كأنما للنار جاذبيتها ، التى لا ينجو منها ، بذاته أحد ، لكنها بمحض فضل الله . لقد حُفَّتْ النار بالشهوات ، والنفس لشهواتها أميل . وحفت الجنة بالمكاره ، والنفس للمكاره أكره . وتقويم هذه النفس بتذكيرها بقضية الحياة والموت ؛ لتتزكى ، فتعان على النجاة والنعيم . ولما سأل ، رجل النبى صلى الله عليه وسلم ، الصحبة فى الجنة ، قال عليه السلام : أو غير ذلك . قال السائل : هو

ذاك . قال له صلى الاله عليه وسلم : أعنّى على نفسك بكثرة السجود !!

ذاك هو المطلب العظيم الأول للمؤمن فى سعيه واجتهاده فى عمله فى الحياة . قال صلى الله عليه وسلم ، لسُلَيْم الأنصاري : ما تقول إذا صليت ؟ فقال : أما إنى أسأل الله الجنة ، وأستعيذ به من النار ، لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ ! فقال صلى الله عليه وسلم : أنا ومعاذ حولها ندندن !!

وذلك هو الفوز العظيم الذى لا يدانيه فوز ، ولا يكون أحد فائز بدونه قال صلى الله عليه وسلم : لموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وم فيها .

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار ، فيصبغ[1] فى النار صَبغة ، ثم يقال له : ياابن آدم ، هل رأيت خيرا قط ؟ هل مرّ بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يارب . ويؤتى بأشد الناس بؤسا فى الدنيا من أهل الجنة ، فيصبغ فى الجنة صبغة ، فيقال له : ياابن آدم ، هل رأيت بؤسا قط ؟ هل مرّ بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يارب ما مرّ بى بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » .

وعلى منهج الإسلام التربوي ، وطريقته (العملية) وعلى نظرته (الإيجابية) للدنيا يقول صلى الله عليه وسلم : من أحب

(١) أى يغمس غمسة يخرج بها مصطبغاً منها .

أن يزحزح عن النار ، ويُدخَل الجنة ، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس بما يحب أن يُؤتى إليه » .

٤ ـ { وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور } :

غَرّة : خدعه ، وأطعمه بالباطل . وأصله : إصابة الغِرّة والغفلة ممن تخدعه وتغشّه .

والغُرور : الاغترار والانخداع بما يغر ويطمع بالباطل .

والغَرور : ما غرك ، من شئ ، أو متاع ، أو إنسان ، أو شيطان .

ومتاع الغرور : هو ما يُدَلّس به على المستام ، ويُغَرّ حتى يشتريه ، ثم يتبين له فساده ورداءته . شبهت به الدنيا . فالدنيا شأنها الغرور لمن يغتر بها . تغرّ الإنسان ، وتشغله عن تكميل عقله . وتزكية نفسه ، وترقية وجدانه ، ورعاية ذاته كلها بالاعتقادات الصحيحة ، والأعمال الصالحة ، والأخلاق السامية ، التى تزكى النفس ، وترقى الروح من كدر الشهوات ، وتصفى الفكر من شوائب الشبهات .

فالمؤمن ـ ثمرة لمنهج الإسلام ـ بصير بشأن الدنيا ، ولذلك هو منها على حذر ، ينال من حلالها وطيباتها ليعيش لغايته ، ويؤدى رسالته ، ويتزود منها لما بعدها ، فإذا كانت الدنيا لغير من تربى على منهج الإسلام متاع الغرور ، فإنها للمؤمن الذى تربى بمنهج الإسلام متاعُ بلاغ .

هذه هى قضية الحياة والموت ، وقضية قيمة الحياة ، وقضية

الإنسان بين الحياة والموت كما عالجها الإسلام بمنهجه الفريد ، فأخرج به خير أمة أخرجت للناس . منهج يعرف به الإنسان مكانه من دنياه ، ومكانته من أخراه ، ويشرع له سبيل العمل الذى ينتهى به إلى الحياة الطيبة فى الدنيا ، والفوز الحق فى الآخرة .

وما زال منهج الإسلام هو المنهج ، لمن شاء أن يبنى نفسه ، ويربى رعيته ، ويكوّن أمته .

ومنْ عَرْض هذا المنهج نعلم أن خلاصته ، هى أن موقف المسلم من قضية الحياة والموت موقف **إيجابى عملى** ، ليس موقف (العزلة) التى أشاعها ، وروّج لها بعض أدعياء التزهد والتصوف . وليس موقف (اللجاجة) الفكرية ، والتشقيقات العقلية ..كما أشاعه ، وعمل له من شغلهم الفكر النظرى المقطوع عن العمل والواقع ، وليس فكر العداء للدنيا ولعنتها والتسخط عليها وازدرائها (والتخدير) عن طيباتها ، كما يزعم أعداء الأديان ، والمفترون على الإسلام . ثم إنه ليس منهج (الجَبْر) وسلب الإنسان قدرته ومشيئته ، كما زعم الجبريون ، كما أنه ليس منهج الفصل بين الله وصفاته ، وبين عباده كما زعم (القدريون) ...

إنه منهج الإيجاب والعمل الذى يجعل الدنيا كلها ميدان المسلم ، والآخرة غاية مناه !!

ولنواصل المسيرة إلى ما وراء هذه الحياة لنعرف واجب الأحياء لمن هم على وَشْك فراقها ، ولمن فارقها ، إلى مثواه .

المريـض ، والمحتـضر

فى سبيل توحيد الجماعة شرع الإسلام واجبات أدبية ، وحقوقا دينية ، وفرض فروضا عينية ، وفروضا اجتماعية .. من شأنها أن توحد جماعة المؤمنين ، فكرا ، ووجدانا ، وأن تتقارب سلوكا ، وتزيدها ترابطا وائتلافا . تشريع من شأنه ـ فى صوره المتعددة ـ أن يميّز جماعة المؤمنين عن غيرها من الجماعات المخالفة لها فى أصل عقيدتها ؛ إذ يطبعها بطابع اجتماعى متميز ، يلمسه من يداخلهم وينظر سلوكهم الاجتماعى ، أو من يكون هذا السلوك موضوع دراسته .

ومن هذا التشريع ، مما هو متصل بموضوعنا ما توضحه هذه التوجيهات النبوية :

١ ـ حق المسلم على المسلم :

ـ يقول صلى الله عليه وسلم : حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عَطَسَ فحمد الله فشمّته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه » .

وتشميت العاطس : يقال بالسين والشين ، وهو أن يقول له : يرحمك الله .

- وعن البراء بن عازب :

أمرنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم بسبع ، ونهانا عن سبع : أمرنا بعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وتشميت العاطس ، وإبرار القسم ، أو المُقْسِم ، ونصر المظلوم ، وإجابة الداعى ، وإفشاء السلام .

ونهانا عن تختم بالذهب ، وعن شرب بالفضة ، وعن المَيَاثر ، وعن القَسِّىِّ ، وعن لُبْس الحرير ، والإستبرق ، والدِّيباج » .

(إبرار القسم ، والمُقْسم) : البر فى اليمين : الصدق فيها ، وعدم الحنث . وإبرار اليمين : أن تُمضى يمين غيرك عليك ، والمُقْسم ، الذى حلف عليك .

وهذا الإبرار سنة مستحبة متأكدة . وإنما يندب إليه إذا لم تكن فيه مفسدة ، أو خوف ضرر . فإن كان شئ من هذا لم يُبر قسمه ، كما ثبت أن أبا بكر ، رضى الله عنه ، لما عبر الرؤيا بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم .

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أصبت بعضا ، وأخطأت بعضا . فقال : أقسمت عليك يارسول الله لتخبرنى ، فقال لا تقسم ، ولم يخبره .

(والمياثر) جمع مِنثر : وهى قطعة من الحرير ، كانوا يضعونها على الرحال والسروج
(والقَسِّىِّ) ثياب سضلعه بالحرير
والإستبرق والديباج) نوعان من الحرير

٢ ـ سؤال العفو والعافية :

فى الترمذى ، وغيره ، من حديث عبد الله بن محصن الأنصارى قال : قال رسول الله صلى الله عليه سلم : من أصبح معافىً فى جسده ، آمنا فى سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا » .

وفى مسند الإمام أحمد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للعباس : ياعم رسول الله ، سل الله العافية فى الدنيا والآخرة ».

وفيه ، عن أبى بكر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سلوا الله اليقين والمعافاة ، فما أوتى أحد بعد اليقين خيراً من العافية » .

وفى سنن النسائى من حديث أبى هريرة يرفعه : « سلوا الله العفو ، والعافية ، والمعافاة ، فما أوتى أحد بعد اليقين خيراً من معافاة » .

قال ابن القيم ، فى الهدى : وهذه الثلاثة تتضمن إزالة الشرور الماضية بالعفو ، والحاضرة بالعافية ، والمستقبلة بالمعافاة .

قال فى اللسان : العفو : التجاوز عن الذنب ، وترك العقاب عليه ، ويكون ذلك بمحو الذنب عنه .

وأما العافية ، فهو أن يعافيه الله تعالى من سقم أو بليَّه ، وهى الصحة ، ضد المرض .

وأما المعافاة : فأن يعافيك الله من الناس ، ويعافيهم منك ، أى : يغنيهم عنك ويغنيك عنهم ، ويصرف أذاهم عنك وأذاك عنهم .

وفى الترمذى : ماسئل الله شيئا أحب إليه من العفو والعافية » ذلك ؛ لأنه جمع بين عافيتى الدين والدنيا ، وذلك على منهج الإسلام فى رعاية الدنيا والآخرة .

لذلك كان من أدب الإسلام عدم تمنى الموت . وإذا ضاقت بالمسلم نفسه فلا يدعو بالشر دعاءه بالخير ، بل عليه أن يهتدى بهدى نبيه صلى الله عليه سلم ، وذلك مارواه الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر أنه صلى صلاة ، فأوجز فيها ، فقيل له فى ذلك . فقال : أما إنى دعوت فيها بدعوات كان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، يدعو بهن : اللهم إنى أسألك بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى إذا كانت الحياة خيراً إلى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى . اللهم إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة . وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا . وأسألك القصد فى الفقر والغنى . وأسألك نعيما لا ينفد . وأسألك قرة عين لا تنقطع . وأسألك الرضا بعد القضاء . وأسألك برد العيش بعد الموت . وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم . وأسألك الشوق إلى لقائك ، فى غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة . اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين » .

٣ ـ عيادة المريض من سنن الإسلام المؤكدة قريبا كان أم غير قريب ، معروفا أو غير معروف ، مسلما كان أو غير مسلم .

ـ وفى الحديث : عائد المريض فى مَخْرَفَة الجنة حتى يرجع »
(المخرفة) سكة بين صفين من نخيل ، يجتنى من ثمار أيها
شاء . والمعنى : أن عائد المريض ـ فيما يحوزه من الثواب ـ كأنه
على نخل الجنة ، يخترف ، أى : يجتنى ثمارها .
ـ ومن السنة أن يحمد الله على نعمة العافية ، عندما يرى
مبتليا ، يقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به وفضلنى على
كثير ممن خلق تفضيلا » .

وواضح أنه لا يسمع المريض ذلك حتى لا يؤذيه .

ـ وإذا دخل على المريض سأله عن حاله . كان صلى الله عليه
وسلم يدنو من المريض ، ويقول : كيف تجدك ؟ ويسأله عما
يشتهى ، فيقول : هل تشتهى شيئا . فإن علم أنه لايضره أمر له
به » ولا يُكْرِه المريض على طعام ولا شراب لخبر : لا تكرهوا
مرضاكم على الطعام والشراب ، فإن الله يطعمهم ويسقيهم » .

ـ يمسح العائد ، بيده اليمنى على المريض ، ويقول اللهم رب
الناس اذهب البأس ، اشف وأنت الشافى ، لاشفاء إلا شفاؤك ،
شفاء لايغادر سقما .

ويدعو له ثلاثا : اللهم اشف فلانا
ويدعو له سبعا يقول : أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن
يَشفيَك بشفائه » .

وإذا وجد منه يأساً بث فيه الأمل ، وقال له ماقاله الرسول
صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقاص : لعلك أن تُخلَّف حتى

ينتفع بك أقوام ، ويُضَرّ بك آخرون » .

- ومن أدب زيارة المريض ألا يطيل المكث عنده ، وأن يذكر له يسر الشفاء : زار رجل عمر بن عبد العزيز وهو مريض ، فقال له : من هذا المرض مات فلان وفلان ! فقال له عمر : إذا عدت مريضا فلا تقل من هذا المرض مات فلان وفلان ، وقل : منه شفى فلان وفلان . وإذا قمت عنا فلا تعد إلينا . **وجاء فى الحديث : عيادة المريض قدر فواق ناقه[1] .**

٤ - والمريض إذا اشتد ألمه فالأولى له - بدلا من الأنين - أن يسبح ، وأن يقول : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . وأن يتلو سورة الإخلاص ، وآية الكرسى ، وآخر الحشر

واذا علم أنه حضور أجله يقول : اللهم أعنى على غمرات الموت ، وسكرات الموت . اللهم اغفر لى وارحمنى ، وألحقنى بالرفيق الأعلى .

وينبغى له المحافظة على الصلوات .

وينبغى له ردّ المظالم ، ولاسيما الحقوق المالية ، وأن يستسمح من له حق من الحقوق غير العينية .

وينبغى له أن يتوب ، وأن يتصدق ، فقد نص بعض علماء الشافعية على أن الصدقة فى الحياة خير من الوصية بعد الموت .

---

(١) أى زمن يسير مقدار ما بين حلبتين .

وعن ثابت البنانى قال :

بلغنا أن إبليس قال : يارب ، إنك خلقت آدم ، وجعلت بينى وبينه عداوة ، فسلطنى عليه وعلى ولده . فقال الله : جعلت صدورهم مساكن لك . فقال : رب ، زدنى ! فقال : لايولد ولد لآدم إلا ولد لك عشرة . قال رب ، زدنى ! قال : تجرى منه مجرى الدم فى عروقه . قال : رب ، زدنى ! قال فأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد . فعندها شكا آدم إلى ربه ، فقال : يارب ، إنك خلقت إبليس ، وجعلت بينى وبينه عداوة وبغضاء ، وسلطه علىّ ، وعلى ذريتى ، وأنا لا أطيقه إلا بك . فقال الله تعالى لا يولد ولد لك إلا وكلت به ملكين يحفظانه من قرناء السوء . قال : رب ، زدنى ، قال الحسنة بعشر أمثالها . قال : رب ، زدنى . قال : لا أحجب عن أحد من ولدك التوبة مالم يُغَرغر (أى تبلغ الروح الحلقوم) .

ـ كما ينبغى له أن يوصى . وسوف أخص الوصية الخاصة ببحث فى نهاية هذه الوصية العامة .

٥ ـ ينبغى لمن ظن قرب أجله أن يحسن الظن بالله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم : لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله »

وحسن الظن بالله : أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه . ينبغى له ذلك مهما بدت له ذنوبه عظيمة . لما حضرت الوفاة أبا نواس قال :

إن كان لايرجوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير المجرم
أدعوك رب كما أمرت تضرعا فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم؟

ـ حضرت الوفاة رجلاً ، فعاده أحد العلماء العارفين ، فقال المحتضَر : أما ذنوبى فإنى أرجو لها عفو ربى ، أما بناتى فإنى أخشى عليهن الضيعة !! فقال له العالم : فالذى ترجوه لذنوبك ارجه لبناتك !!

ـ إن حب لقاء الله فى حال المرض والاحتضار من علامات الرضا والقبول ، روى البخارى عن عبادة بن الصامت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من أحب لقاء الله أحب الله لقائه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . قالت عائشة ، أو بعض أزواجه : إنا لنكره الموت . قال : ليس ذاك ، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس شيء أحب إليه مما أمامه ، فأحب لقاء الله ، وأحب الله لقاءه . وإن الكافر إذا حُضرَ بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته ، فليس شيء أكره إليه مما أمامه ، كره لقاء الله ، وكره الله لقاءه » .

ـ وينبغى له ألا يطلب من أحد أن يرقيه ، فقد جاء فى حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب : أنهم لايسترقون وعلى ربهم يتوكلون . وذلك من كمال إيمانهم وتوحيدهم وتوكلهم ، فلايسألون الناس أن يرقوهم ، لكمال توكلهم على ربهم ، وسكونهم إليه وثقتهم فيه ، ورضاهم عنه ، وإنزال حوائجهم به ، فلايسألون الناس شيئا ، رقية ولا غيرها .

فعائد المريض يرقيه ، والمريض لايسترقيه .

مايفعل بالمحتضر [1]

حالة الاحتضار من مشاهد اليقين ، توقظ فى النفس كامن الإيمان ، وتطلعها على قدرة الله وقهره ، وتقف من شاهدها على سر من أسرار الله فى الإنسان ، لذلك عرضها القرآن الكريم دليلا على مربوبية الإنسان لله رب العالمين ، وخضوعه القهرى له وجريان حكم الله عليه .. يقول الله : { أفبهذا الحديث أنتم مدهنون . وتجعلون رزقكم أنكم تكذّبون . فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين } الواقعة : ٨١ ـ ٨٧ . المعنى أفبهذا القرآن أنتم متهاونون ، وتجعلون غاية حظكم منه ، وهو الحق المصون ، الذى لايمسه إلا المطهرون من الأدناس الحسية والمعنوية ـ تجعلون حظكم منه ، وهذا شأنه ، أنكم تكذبون به . فهلا ـ إذا تمردتم على الإيمان ـ تمردتم ـ إن استطعتم ـ على الموت ، وها أنتم تشهدون من حضرته الوفاة ، وبلغت روحه حُلقومه ، فهلا ترجعون الروح إليه ، إن كنتم صادقين فى زعمكم ماتزعمون من أباطيل كفركم ، وما زعمتم أن الله لا ينالكم بعذاب ، والله أقرب منكم إلى المحُتضر ، ولكن غشاوة الدنيا ، وضلالة الكفر تجعلكم لا تبصرون . فهلا راجعتم موقفكم ، ورجعتم إلى أنفسكم فتتخذوا من هذا المشهد دليلا على صدق القرآن ، وقدرة الله عليكم ...

(١) المحتضر : هو من حضرته الوفاة ، فهو اسم مفعول يُضم ميمه ، ويفتح ضاضه .

وفى الحق أنه مشهد موقظ للقلب ، منبه للمشاعر ، كاشف لغشاوة الاغترار بالحياة الدنيا ، مذكر لمن كان له قلب بمصيره فى الدنيا ، ومآله إلى الله .

هذا ، وقد رسمت الشريعة من آدابها جملة يقوم بها أهله ، وأقرب الناس إليه ، وأحبهم إليه . أرسمها فى خطوات مرقومة ليسهل القيام بها :

١ - يُرفع المحتضر عن الأرض ، ويُضجع على جنبه الأيمن ، ووجهه إلى القبلة . فإن لم يمكن اضجاعه على جنبه ، استلقى على ظهره ، ورجلاه إلى القبلة ، ويرفع رأسه قليلا ؛ ليكون وجهه إلى القبلة . وتخشع الأصوات ويوضأ المحتضر .

٢ - يحضره بعض أهله الأقربين ، ممن كان يحبهم ، وبعض من له تقوى وصلاح من أصحابه . ويكون الجميع على طهارة . ويوضع بالمكان بخور طيب الرائحة .

٣ - يقول بعض الحاضرين : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . ولا يقول للمحتضر : قل لا إله إلا الله .

٤ - وإذا قال المحتضر لا إله إلا الله مرة ، لا يعاد عنده التهليل إلا إذا تكلم بكلام دنيوى . ويندب أن يكون الملقن غير وارث ، ولا حاسد ، ولا عدو .

٥ - يذكر عنده بعض الأقربين محاسن عمله ؛ ليحسن الظن بالله ، لما جاء فى الحديث : « أنا عند ظن عبدى بى » (حديث

قدسى صحيح) . قال سهل : رأيت مالك بن دينار بعد موته ، فقلت : ياأبا يحيى ، ليت شعرى ماذا قدمت به على الله ؟ قال : قدمت بذنوب كثيرة ، محاها عنى حسن الظن بالله عز وجل .

قلت : معنى هذا : أن هذا العالم الإمام لم ينظر إلى حسناته ، وآثاره العملية ، وإنما أقبل على الله إقبال المفلس مما له ، المعرض عن النظر إلى حسناته ، ناظرا إلى سيئاته ، راجيا فضل الله ، يحسن الظن فى عفوه فعفا عنه ؛ لأن استحضار ذلك توبة ، والله يقبل التوبة ما لم يصل المحتضر إلى حالة المعاينة . والحجاج الثقفى ـ على ظلمه ـ لما حضرته الوفاة قال : اللهم اغفر لى ؛ فإنهم يقولون : إنك لا تغفر لى ! فلما بلغت الحسن البصرى قال : أوقد قالها ، إنى لأرجو له بها المغفرة !!

٦ ـ يقرأ بعض من له تقوى وصلاح وعلم ـ عند المحتضر ـ سورة يس ، وسورة الرعد ، بحيث يسمع المحتضر . وسورة يس آكد من سورة الرعد ، فإن اقتصر فعليها . ويكون القارئ محتسبا غير مأجور ؛ فذلك أدعى إلى الإخلاص فيها . فى الحديث : (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله) (اقرءوا يس على موتاكم) وفسّر العلماء (الموتى) بالمحتضر ، وليس بمن مات فعلاً . وتقدم (يس) على الرعد إن خيف الفوت . وتقرأ يس جهرا ، والرعد سراً .

إذا مات المحتضر

تتبع معه الخطوات الآتية :

١ ـ يوضع على مكان مرتفع . إن لم يكن وضع عليه قبلا .

٢ ـ تُغْمَض عيناه ، ويقول المغمِّض : باسم الله وعلى ملة رسول الله . ويَشُد لحييه برباط ؛ لينغلق فمه . ويُلَيِّن أصابعه ، ومفاصله . ويُجرد من ثيابه التى مات فيها ، ما عدا قميصَه الرقيق الذى ينفذ منه الماء ، فإن لم يكن القميص كذلك جُرِّد ، وغطى جميعه بما يستره ، ويَجْعَل طرفى الستر تحت رأسه . يفعل ذلك بالميت أرفق محارمه ، الذكر مع الذكر ، والأنثى بالأنثى ، وأحد الزوجين بالآخر . ويدعو له بهذه الأدعية :

ا ـ اللهم اغفر له ، وأدخله جنتك . وقد فعلت »

ب ـ اللهم اغفر له ، وارفع درجته فى المهديين ، وافْسَح له فى قبره ، ونوِّر له فيه ، واخلُفه .

٣ ـ المبادرة بأداء دينه ، **ومن الدين مؤخر الصداق** ، إلا أن تسامح الزوجة ، أو ورثتها . **ومن الدين الزكاة التى لم تؤد ، ومنه حجة الإسلام . كل ذلك يخرج من ماله قبل التوريث .**

٤ ـ المبادرة بتنفيذ وصيته . [١]

---

(١) بادرت بالتنبيه على الدين والوصية قبل الكلام على بقية الواجبات ، للأحاديث =

٥ ـ يحسن أن يوضع على بطنه شئ يمنع انتفاخه .

٦ ـ ثم يعلم الناس بموته ، ولا سيما أهل الصلاح ، ولا بأس بالانتظار بدفنه مدة مأمونة ، ليحضره أهل الصلاح للصلاة عليه ، وتشييعه .

٧ ـ لا بأس بتقبيل الميت ، والبكاء عليه من غير صوت .

غسل الميت

قال عطاء : سألت ابن عباس عن قول الله تعالى : { وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة } فقال : هذا من كنوز علمي . سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أما الظاهرة فما سوّى من خلقك ، وأما الباطنة فما ستر من عورتك .

وقال عليّ كرم الله وجهه : لا تنظر إلى فخذ حى ولا ميت .

لما مات صلى الله عليه وسلم تَحيّروا : هل يجردونه ؟ فألقى عليهم الله السِّنة . فسمعوا من يقول لهم : اغسلوا النبى صلى الله عليه وسلم فى ثيابه . فثاروا إليه ، فغسلوه وهو فى قميصه . لهذا يجب :

= المخبرة بأن روح الميت معلقة بدينه حتي يقضى . ولأن عمر بعد أن طعن وقبل أن يموت قال لابنه عبد الله : انظر ماعليّ من الدين . ولذلك بّوب علماء الحديث على بعضها بقولهم : « باب المبادرة إلي تجهيز الميت وأداء دينه » وكذلك لأن الميت قد يكون فى وصيته شيء يتعلق به قبل دفنه .

ا ـ ستر عورة الميت .
ب ـ حرمة النظر إليها .
جـ ـ حرمة لمسها .

ويجب على الغاسل أن يلف يده ، حتى ولو كان الغاسل أحد الزوجين فهذه الواجبات والمحرمات ثابتة أيضا .

وإليكم هذه العبرة :

على عهد الإمام مالك رضى الله عنه غسلت الغاسلة ميتة بيدها من غير حائل ، فالتصقت يد الغاسلة بفرج الميتة ! فاحتار الناس ماذا يفعلون ؟ فمن قائل : نقطع كف الغاسلة . ومن قائل نقطع فرج الميتة ! إلى أن قال قائل اذهبوا إلى الإمام مالك فسلوه . فقال الإمام : سلوا الغاسلة : ماذا قالت ؟ فسألوها فقالت : قلت : ياهذا ، كم زنيت ! فقال الإمام : اجلدوها ثمانين جلدة ! فجلدوها ، فخلصت يدها !!

من يغسل الميت ؟

قال صلى الله عليه وسلم : « **ليَلِه أقربكم إن كان يعلم ،** فإن لم يكن يعلم فمن ترون عنده حظا من **ورع وأمانة** » .

الورع : الصلاح ، والبعد عن أكل الحرام .
الأمانة ، هنا : العلم بأحكام الشريعة فى غسل الميت .

وقال صلى الله عليه وسلم : كسر عظم الميت ككسره حياً » .

يتضح لنا من أقواله صلى الله عليه وسلم أن أمور الميت ، فى إعداده لمصيره ، تقوم على :

الدعاء له ـ العلم الشرعى بأحكام الغسل والدفن ـ الرفق به غاية الرفق ، بحيث يعامل كأنه حيّ رقيق الشعور ، مرهف الحس ـ الستر ـ الأمانة ـ الصلاح .

والميت يسمى جنازة من جَنَز : بمعنى : ستر

وأية مهانة تلك عندما تكشف عورة الميت ، وتقلب باليد عارية ، وأية مهانة شاهدتها عندما يدخل الإصبع فى دبر الميت بحجة التنظيف !!! إن الذين يلون موتانا اليوم من أجهل الناس بالذوق والرفق . دع عنك أحكام الشريعة .

إن غسل الميت ، ودفنه ، ليس حرفة يحترفها مرتزق ، لقد كان من نتيجة الاحتراف هذه الجهل ، وتلك المهانة .

ليس صعبا أن يتدرب بعض الشباب فى كل قرية على أمور الميت ، وقد يسّرتها هذه (الوصية) لو جعل الشباب المتعلم المتدين هذا الموضوع من غرضهم لخدموا موتاهم ، وأحيوا سنة مهملة ، فيكون لهم عند ربهم ثواب إحيائها .[1] على أنه يمكن

(١) الأنثى أحق بالأنثى فى أربعة مواضع :
١ ـ حملها من محل موتها إلى المغسل
٢ ـ حملها من المغسل إلى النعش
٣ ـ حملها من النعش إلي تسليمها لمن في القبر
٤ ـ حل شدادها فى القبر

لأهل كل ميت ـ بدراسة هذه الوصية ـ غسل ميتهم .

كيف يغسل الميت ؟

أولا :

أشياء تُعَدّ :

١ ـ مبخرة بها بخور ، إلى نهاية التكفين .

٢ ـ زيت كافور . ولا يغنى عنه الطيب الزيتى الذي يستعملونه الآن .

٣ ـ ماء ، يضاف إليه قليل من الملح ، ولا يسخن الماء إلا لضرورة .

٤ ـ الكفن (سيأتى بيانه)

٥ ـ يحضر مع الغاسل اثنان يعاونانه ، ولا مانع من رابع من أهل الصلاح[1] فقد حضر غسل الرسول ، صلى الله عليه وسلم أربعة : علىّ ، والفضل ، وأسامة ، وكان يصب الماء ، والعباس واقف .

يتم ذلك والميت على مرتفع .

ثانيا :

مباشرة الغسل :

مع ملاحظة أن الميت فى قميصه الرقيق ، ويغسل الغاسل بيده

(١) والأولي أن يكون من أولياء الميت ويكون أقرب الورثة .

من تحت القميص . فإن لم يمكن شقت جوانب القميص ، فإن لم يمكن وجب أن يكون على الميت ما يستره ، وساتر آخر على وجهه . أو ساتر واحد يستره جميعه . ويلف الغاسل يده أثناء الغسل كله ، فإن لم يمكنه فعند غسل السوأتين وباقى العورة وجوبا ؛ إذ يحرم كشف العورة ولمسها بالمباشرة (والعورة ما بين السرّة والركبة) .

ثالثا :

خطوات التنفيذ :

١ ـ يُجلس الغاسل الميتَ برفق ، جلوساً غير كامل ، ثم يُسْنِد ظهره بركبته اليمنى ، ويُسند رأسه بإبهام يده اليمنى ، ويسند كتفه بكفه اليمنى . ثم يعصر ، عصراً رفيقا ، بيده اليسرى بطنه مرات حتى تخرج الفضلات .

٢ ـ يضجع الميت على ظهره ، ثم يبعد الفضلات ، ويغسل بيده الملفوفة سوأتيه (كما يستنجى الحى بيده اليسرى تماما) (إذا كان الميت امرأة حاملا فلا يعصر بطنها) .

٣ ـ يرمى الغاسل لفافة يده ، ويغسل يديه بالماء والصابون .

٤ ـ يلف الغاسل على سبابة يده اليسري لفافة ويمسح أسنان الميت ، ولا يفتح فمه ، ثم يمسح منخريه .

٥ ـ بعد ذلك يوضئ الغاسل الميت كوضوء الحى . مع الاحتراس من دخول الماء فى جوفه ، **ويجب** نية الوضوء ، بأن

يقول : نويت الوضوء عن هذا الميت . وابتداء النية غسل الوجه .

٦ - بعد الوضوء ، يغسل رأسه ولحيته ، ولو لم يكن شعر ، بالماء والصابون .

٧ - يغسل شقه الأيمن بالماء والصابون ، من عنقه إلى قدمه اليمنى (لاحظ أن الميت على ظهره)

٨ - يغسل شقه الأيسر بالماء والصابون من عنقه إلى قدمه اليسرى .

٩ - يحرك الميت إلى جنبه الأيسر ، ثم يغسل شقه الأيمن من قفاه إلى قدمه اليمنى .

١٠ - يحرِّك الميتَ إلي جنبه الأيمن ، ثم يغسل شقه الأيسر من قفاه إلى قدمه اليسري .

ملحوظة (يحرم كب الميت على وجهه ، فى الحديث : إنها ضجْعة يُبْغضها الله) .

١١ - إلى هنا يكون جسد الميت قد غسل بالماء والصابون . وهنا يُصَب الماء على الميت من رأسه إلى قدميه ؛ ليزال الصابون .

١٢ - بعد إزالة الصابون ، يصب ماء ، ممزوج بقليل من زيت الكافور (وهنا ينوى الغاسل الغسل عن الميت ، ثم يقول : باسم الله ، لا يزيد عليها شيئا) .

ملحوظة : هذه ثلاث غسلات : الأولى بالماء والصابون ،

والثانية بالماء القراح ، الذى أزال الصابون . والثالثة بالماء الممزوج بالكافور . **وكل هذه الغسلات غسلة واحدة .**

١٣ ـ يكرر الغسل على الطريقة السابقة ، **من غير غسل الرأس** . فإذا كانت كل مرة فيها أغسال ثلاثة فإن مجموع الأغسال تسعة (الرأس والوجه واللحية غسلت بالماء والصابون مرة واحدة ، وصب الماء عليها عند إزالة الصابون ثم صب عليه الماء بالكافور) فيكون البدء فى الغسل المكرر من العنق)

ملحوظة : شعر المرأة يجعل ثلاث ضفائر : واحدة لشعر الناصية ، وواحدة للجانب الأيمن ، والثالثة للجانب الأيسر . تطرح الضفائر خلفها .

١٤ ـ بعد إتمام الغسل على هذا النحو السالف يجفف جسد الميت بغير الكفن ، تجفيفا جيدا ، **ولا يوضع فى الكفن من غير تجفيف** (كما يستنشف الحى بعد استحمامه وقبل لبس ملابسه) .

١٥ ـ بعد التجفيف يطيب بالكافور : فى أذنيه ، وعينيه ، وتحت إبطيه ، ثم أعضاء السجود السبعة (إن لم يوجد الكافور فماء الورد) .

١٦ ـ إذا خرج من الميت نجاسة ـ بعد كل ما تقدم ـ تزال ، ويغسل ما أصابته من ثوب ، أو جسد ، **ولا يعاد الغسل** .

١٧ ـ يسرّح الشعر بمشط واسع الأسنان ، برفق . وإذا سقط

شعر يوضع مع الميت [1] .

ملحوظة : على غاسل الميت ، أن يغتسل ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : من غسل ميتا فليغتسل ، ومن حمله فليتوضأ » (راجع البداية والنهاية لابن رشد ١:٢٢٩) .

الكفن

قالت عائشة : كفن صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة أثواب بيض سحولية ، ليس فيها قميص ولاعمامة . هذا ما ارتضاه الله لنبيه . لذلك قال أبو هريرة ، عند موته : لا تقمّصونى ، ولا تُعَمِّمونى ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُقمّص ، ولم يعمم .

فكفن الرجل ثلاثة أدراج بيض .**أما كفن المرأة فخمسة** أثواب :

١ ـ إزار ٢ ـ قميص ٣ ـ خمار ٤ ، ٥ ـ لفافتان

والإزار : ما يشد على الوسط إلى الساقين
والخمار : ما يغطى به الرأس إلى القدمين
والقميص : من العنق إلى القدمين ، ولا يكون للقميص أكمام .

---

(١) يجوز للرجل أن يغسل محارمه من النساء وللمرأة أن تغسل محارمها من الرجال (راجع فتح العلام بشرح مرشد الأنام ٢ : ١٠٢) .

لفافتان يستران البدن مع زيادتهما بعد القدمين والرأس ؛ وتكون الزيادة من عند الرأس أكثر .

وتكفن على هذا الترتيب : الإزار ثم القميص ، ثم الخمار ، ثم اللفافتان .

(راجع فتح العلام ٢ : ١٠٣) (وراجع حاشية الباجورى على ابن قاسم ١ : ٢٨٣) (وراجع المغنى لابن قدامة ٢ : ٣٤٢) والبنت إذا كانت دون تسع تكفن فى درجين وقميص لا أكمام له

كيفية التكفين

فهم مما تقدم ـ في كفن المرأة ـ كيف تكفن .

أما الرجل فتبسط اللفافة الأولى (الدرج) ويوضع عليها الطيب ثم تبسط عليها اللفافة الثانية ، ويوضع عليها الطيب ، ثم الثالثة كذلك .

ملحوظة : اللفافة الأولى هى التى ستكون ظاهرة لذلك تكون أوسع من الأخرين . وإذا اختلفت جودة اللفائف ، تكون الأولى هى الأجود .

ثم يوضع الميت مستلقيا على ظهره ، وتلف عليه اللفائف ، لفافة لفافة ، بأن يثنى أولا الذى يلى شقه الأيسر على شقه الأيمن ، ثم الذي يلى شقه الأيمن على شقه الأيسر (كما جرت عادة الحى فى لبس القفطان).

على

ملحوظة : توضع يدا الميت على صدره ، يمناه على يسراه ، أو يرسلان إلى جنبه - يدس قطن مندوف بين الإليتين ، ويشد بخرقة مثل (الحفاظ) حتى تصل إلى حلقة الدبر ، **دون إدخال** ، - يجمع الفاضل من الكفن عند رأسه ورجليه ، ويكون الذي عند رأسه أكثر - تربط اللفائف برباط خوف الانتشار ، ويكون الرباط من فوق الرأس ومن تحت القدمين ، وتحل الأربطة بعد وضعه فى القبر - لاحظت - مع الأسف فيما حضرت من تغسيل الموتى -أنهم يربطون الميت من عند رقبته ومن عند يديه ، وبعنف لايتفق مع السنة ، ولامع الكرامة (تنبيه : الرباط من فوق الرأس ومن تحت القدمين) .

الصلاة على الميت

ينوى المصلى صلاة الجنازة فرضا على من حضر من أموات المسلمين ، أو على هذا الميت . ويكبر عليه أربع تكبيرات بتكبيرة الإحرام ، ويقرأ المصلى الفاتحة ، بعد التكبيرة الأولى وتكون القراءة سرا وإن صلى ليلا . ولايقرأ قبل الفاتحة دعاء الافتتاح ، ولايقرأ بعدها سورة . وبعد التكبيرة الثانية يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، و أقل الصلاة عليه : اللهم صل على محمد . وأكملها صلاة التشهد . وبعد التكبيرة الثالثة يدعو للميت . وأقل الدعاء له : اللهم اغفر له . وأفضله ، وترتيبه هكذا :

١- اللهم اغفر له وارحمه ، وعافه واعف عنه ، وأكرم منزله ، ووسع مدخله ، واغسله بالماء والثلج والبَرَد ، ونقّه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس . وأبدله دارا خيرا من داره ، وأهلا خيرا من أهله ، وأدخله الجنة ، وقه فتنة القبر ، وعذاب النار .(١)

٢-اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وشاهدنا وغائبنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا .اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان ، اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده .

٣- اللهم إن فلان ابن فلان فى ذمتك وحبل جوارك . اللهم إن هذا عبدك ، ابن عبدك ، خرج من رَوْح الدنيا وسعتها ، ومحبُوبُه وأحباؤُه فيها -إلى ظلمة القبر وما هو لاقيه .كان يشهد ألا إله إلا أنت ، وحدك لا شريك لك ، وأن محمدا عبدك ورسولك ، وأنت أعلم به منا . اللهم إنه نزل بك وأنت خير منزول به ، وأصبح فقيرا إلى رحمتك ، وأنت غنى عن عذابه ، وقد جئناك راغبين إليك ، شفعاء له . اللهم إن كان محسنا فزد فى إحسانه ، وإن كان مسيئا فتجاوز عنه ، ولقِّه برحمتك رضاك ، وقه فتنة القبر وعذابه ، وافسح له فى قبره ، وجاف الأرض عن جنبيه ، ولقِّه برحمتك الأمن من عذابك حتى تبعثه آمنا إلى جنتك برحمتك يا أرحم الراحمين » .

(١) في الصحيح عن عوف بن مالك أنه سمع الرسول يدعو بهذا الدعاء فى صلاة جنازة حتي قال عوف : تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت .

وبعد التكبيرة الرابعة يقول : اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله . ثم يسلم سلاما كاملا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . عن اليمين والشمال .

ملحوظة : إن كان الميت صغيرا لم يبلغ التكليف يقال فى الدعاء له : اللهم اجعله فَرَطا لأبويه ، وسلَفًا وذخرا وعظة ، واعتبارا ، وشفيعا ، وثقِّل به موازينهما ، وأفرغ الصبر على قلوبهما ، ولا تفتنهما بعده ، ولاتحرمهما أجره .

– يقال هذه الأدعية بصيغتها من غير تغيير الضمائر من المذكر إلى المؤنث إن كان الميت أنثى ، لأن المراد **الميت** ، وهو لفظ يستوى فيه المذكر والمؤنث .

– يجوز الصلاة على جنازتين فأكثر بصلاة واحدة ، ويكون الأفضل مما يلى الإمام .وإفراد كل جنازة بصلاة أفضل .

– الأولى بالصلاة على الميت من أوصى بالصلاة علية . فإن لم يكن أوصى ، فالأب ، ثم أبوه وإن علا. ثم الابن ، فابنه ، وإن نزل ، ثم الأخ الشقيق ، ثم الأخ لأب ، ثم ابن الأخ لأبوين ، ثم لأب ، ثم العم لأبوين ، فلأب . ثم ابن العم لأبوين فلأب . ثم ذو الرحم الأقرب فالأقرب .ثم إمام المسجد ،

– يحسن ألا يقل عدد المصلين عن مائة . ولا تقل الصفوف عن ثلاثة وأقله رجلان .

– مسألة : رأس الميت ذكراً أوأنثى يكون على يمين الإمام .

قلت : تذكر كتب الشافعية أن رأس الميت الذكر يكون لجهة يسار الإمام ، أما الأنثى فيكون رأسها لجهة يمينه . أقول : وهذا تفريق لا دليل عليه ، ومنصوص مذهب المالكية أن رأس الميت إلى يمين الإمام رجلا كان أو امرأة . وفى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٣ : ١٥٧ مايشعر بعدم التفرقة ، وكذلك يؤخذ من كلام المجموع للنووى وكذلك ماجاء فى الأحاديث من أنه أتى بأم كلثوم بنت علىّ ، وابنها زيد ، وقد توفيا جميعا فأخرجت جنازتهما ، فصلى عليهما أمير المدينة فسوى بين رؤوسهما وأرجلهما حين صلى عليهما . وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ كثير (راجع نيل الأوطار ٤ : ٦٧) فالصواب أن رأس الميت إلى يمين الإمام ذكرا كان الميت أم أنثى . غير أن موقف الإمام يكون إلى رأس الميت ذكرا ، وإلى وسط المرأة .

ـ من فاتته الصلاة على الجنازة يجوز له أن يصلى على الميت فى قبره .

ـ السقط إذا استهل : رفع صوتا أو بكى يصلى عليه كالكبير . ومن المذاهب من يرى أنه إذا ولد لأكثر من أربعة أشهر غسل وصلى عليه . وأنا إلى هذا المذهب أميل ، لأن الروح تنفخ فيه لتمام أربعة أشهر .

رؤية الجنازة

١ ـ يقوم لها إلى أن تمر

٢ ـ كان ابن عمر يقول : هذا ماوعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله . اللهم زدنا إيمانا وتسليما

وكان أبو هريرة يقول إذا رأى جنازة : امضوا فإنا على الأثر .

وكلمة أبى هريرة كلمة مؤمن يقظ القلب ، مستحضر للمصير ، فإن لسان حال النعش يقول لمن يراه :

انظر إلىّ بعقلك ... أنا المهيأ لنقلك
أنا سرير المنايا ... كم سار مثلى بمثلك

فلا يرى الجنازة من يراها ولا يستحضر مصيره ، ولا يوقظه إلا قاسى القلب مغرور بالحياة ، غافل عن الأجل .

عند المقابر

يقول زائر المقابر ، أو المار بها : السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم ويرحم المستأخرين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . يغفر الله لنا ولكم .

لما أشرف الإمام علىّ كرم الله وجهه على القبور بظاهر الكوفة ، قال : يا أهل الديار الموحشة ، والمحالّ المقفرة ، والقبور المظلمة ياأهل التُربة ، ياأهل الغربة ، ياأهل الوحدة ، يا أهل

الوحشة . أنتم لنا فَرط سابق ، ونحن لكم تبع لاحق أمًا الدور فقد سُكِنَتْ وأما الأزواج فقد نُكحتْ ، وأما الأموال فقد قُسمت هذا خبر ما عندنا ، فما خبر ماعندكم ؟

ثم التفت إلى من معه فقال : أمَا لو أذن لهم فى الكلام لأخبروكم أن خير الزاد التقوى » .

قال المعرّى :

إذا الحـــىّ أُلبس أكفانـــه فقد فَنـى اللّبس واللابس
ويبلى المحَيّا ، فلا ضاحك إذا سَرَّ دهر ، ولا عابس
ويُحبَس فى جَـدَث ضيّـــق وليـس بمطلقـــه الحابـس
يجاورُ قوما أجادوا العظات ومـا فيهـم أحــد نابــس

من الوقائع أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم مرّ على قبرين فقال : إنهما ليعذبان ومايعذبان فى كبير ، ثم قال : بلى ، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة ، وأما أحدهما فكان لا يستتر من بوله ، ثم أخذ عودا رطبا فكسره اثنتين ، ثم غرز كل واحد منهما على قبر ثم قال : لعله يخفف عنهما مالم ييبسا » .

وأخذ الناس من هذا الحديث عادة وضع الجريد ، أو سواه من الأعواد الرطبة على القبر . ومن الصحابة من أوصى بأن يوضع الجريد فى قبره .

غير أنه من العلماء من جعل هذا العمل خاصاً بالرسول صلى الله عليه سلم . وذكر البخارى أن ابن عمر رأى فسطاطا على قبر

عبد الرحمن فأمر بنزعه، وقال : إنما يظله عمله . (راجع فتح الباری جـ ١ : ٢٥٣ ، جـ ٣ : ١٧٣ ، ١٨٨) .

وما قاله ابن عمر هو قاعدة الإسلام فی النجاة والحساب فيجب ألا يغتر أحد بمثل هذه الخصائص ، كحديث الجريدة ، فإنها من وقائع الأحوال التی لا تلغی الأصول العامة .

عند وضع الميت فی القبر يقول واضعه : منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخری . باسم الله ، وفی سبيل الله ، وعلی ملة رسول الله .

ويُؤخذ من تراب القبر ، ويقرأ عليه أول سورة البقرة ، وآخرها . أو سورة القدر سبع مرات . ثم يوضع التراب عند رأس الميت ، ويرش الماء علی القبر .

ويستحب لأهل الميت أن يظلوا عند القبر مقدار ماتنحر الجزور ، وتقسم عشرة أقسام ، يدعون لميتهم ويستغفرون له (أرجو أن يسأل أهل الخبرة عن المقدار الزمنی الذی يستغرقه نحر الجزور وتقسيمها) .

إنفاذ وصية الميت ، وأداء دينه مما يرحمه الله به ، وروح الميت مرهونة بدينه . وكان صلی الله عليه وسلم ، إذا جیء بجنازة ليصلی عليها سأل : هل عليه دين ؟ فإن قالوا : نعم ، قال : صلوا علی صاحبكم .

ذكر ابن القيم ، فی كتاب الروح : أن الصعب بن جثامة وعوف

ابن مالك كانا متآخين . وأن الصعب قال لعوف : أى أخى ، أيُّنا مات قبل صاحبه فليتراءى له . فمات صعب ، فرآه عوف فيما يرى النائم ، فقال له عوف : مافعل الله بك ؟ قال غفر لى بعد المصائب . قال عوف : ورأيت لمعة سوداء فى عنقه . قلت : أى أخى ، ماهذا ؟ قال : عشرة دنانير استلفتها من فلان اليهودى ، فهن فى قرنى (مكان حفظها) فأعطوه إياها .. فلما أصبح عوف قال : إن فى هذا لمعلما . قال : فأتيت أهله ـ فنظرت إلى القرن فأنزلته ، فأخرجت ما فيه ، فوجدت الصُرّةَ التى فيها الدنانير ، فبعثت إلى اليهودى ، فقلت : هل كان لك على صعب شيء ؟ قال : رحمه الله ، عشرة دنانير ، وهى له . قال : فدفعتها إليه . فقال : هى ، والله بأعيانها !!

هذا ، ويلزم أن يُعلم أن أداء الدين مقدم على الوصية ، وإن كانت الوصية مقدمة فى لفظ القرآن على الدين . وكلا الدين والوصية مؤخر عن جهاز الميت .

أفضل صيغ التعزية هى : إن لله ما أخذ ، ولله ماأعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى .

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه سلم ، واشتد الحزن ببعضهم سمعوا من يهتف بهم : إن فى الله عزاءً من كل مصيبة ، وخلفا من كل هالك ، ودَركاً من كل فائت ، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حُرم الثواب .

وينبغى للمصاب ألا يضيع على نفسه ثواب الله وعوضه بعدم

الصبر . فقد مرّ صلى الله عليه وسلم بامرأة عند قبر ، وهى تبكى ، فقال لها : اتقى الله واصبرى فقالت : إليك عنى فإنك لم تصب بمصيبتى . ولم تعرفه . فقيل لها : إنه النبى صلى الله عليه سلم . فأتت باب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت : لم أعرفك . فقال : إنما الصبر عند الصدمة الأولى » .

والمعنى أن الصبر حقا هو الثبات عند أول هجوم أسباب الجزع ، فذلك هو الصبر الكامل الذى يترتب عليه الأجر .

وعلى المصاب أن يستعين بهذا التوجيه النبوى فى هذا الحديث ، كما يستعين بهذا الدعاء الذى علمنا إياه الرسول صلى الله عليه سلم ، وهو قوله عليه السلام : ماأصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال :

اللهم إنى عبدك ، ابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فىّ حكمك عدل فىّ قضاؤك . أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى .

قال : إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانهما فرحا .

قالوا : يارسول الله ، ألا نتعلمهن ؟ قال : بلى ، ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن » .

إن المبالغـة فى الحزن ، وفى مظاهره عادات مخالفـة لهـدى نبينا ، ومن عجب أننا نخالف هذا الهدى ، بينما الأمم الأخرى تقـوم به عن غير علم بهدى نبينا عليـه السـلام ، لقـد سـرت إلينا ـ نحن المصريين ـ بعض عادات الفراعنة فالخميس ، والخميس الكبير ، (والأربعين) وتمام السنة ... كل ذلك من سَنَن الأقدمين ، الذى لم يشرعه ديننا . وهى عادات مخالفة لنظرة الإسلام للحياة والموت ، كما بينت ذلك فى صدر هذه الوصية . أما هدى الإسلام فتوجيه يربط الحادثة الفردية بالحقيقة الإلهية الكلية { وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوت من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون } قال عمر ، عند هذه الآيات : نعْم العدلان : الصلاة والرحمة ، ونعمْ العلاوة : وأولئك هم المهتدون .

فالذين يجزعون ويفوتون على أنفسهم ثواب الصبر عند الصدمة الأولى ، إنما يفوتون على أنفسـهم السـبب المطلـوب ، المبشر عليه بالصلاة والرحمة وهما العدلان ، المتعادلان فى تحقيق الفضل العظيم من الله ، وعليها علاوة زائدة وهى الهداية إلى منهج الله !

فإذا فوت المصاب على نفسه هذا الخير ، وأقام على مظاهر الحزن وعاداته فقد خسر خسرانا مبينا . ثم إذا أضيف إلى تلك العادات محفل القرآن ، الذى لاتراعى فيه أحكام تلاوته ، وقواعد تجويده ، وحقائق معانيه فى الوقف والابتداء ، فهو محفلٌ القارىء فيه فاسق ، والمستمع آثم ، كما قال الإمام النووى فى كتابه (التبيان) !

فالصبر يحقق الأجر . والسخط يفوته ويجلب الإثم وأمر الله نافذ . روى البخارى أنه لما مات الحسن بن الحسن بن علىّ ، رضى الله عنهم ، ضربت امرأته القبة على قبره سنةً ثم رفعت . فسمعوا صائحا يقول : ألا هل وجدوا مافقدوا ؟ فأجاب الآخر : بل يئسوا فانقلبوا » .

قال ابن المنير : ضربت الخيمة هناك للاستمتاع بالميت بالقرب منه تعليلا للنفس وتخييلا باستصحاب المألوف ، من الأنس ، ومكابرة للحسّ ، كما يتعلل بالوقوف على الأطلال البالية ، ومخاطبة المنازل الخالية . فجاءتهم الموعظة على لسان الهاتفين بتقبيح ما صنعوا ، وكأنهما من الملائكة ، أو من مؤنى الجن . أقول : لعل فى هذه القصة داعية صبر لابنتى ، ومرفأ رضى بقضاء الله !

الوصية الخاصة

ماتقدم إنما كان لكل مسلم ، يعمل به لغيره ، ويعمله غيره له وهناك الوصية الخاصة التى يوصى بها كل أحد ليعمل بها ورثته وأولياؤه من بعده .

وأتكلم فيها على موضوعين : بعض أحكام الوصية ووصيتى الخاصة .

أحكام الوصية

من أبواب الخير ، التى شرعها الإسلام للمسلم ، فى حياته ، لينتفع بثوابها بعد مماته ـ الوصية .

جاء فيما رواه الدارقطنى ، وغيره أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قال : إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم عند وفاتكم زيادة فى حسناتكم » .

وقد حض عليها صلى الله عليه وسلم فى أحاديث كثيرة ، منها ماجاء فى الصحيحين : ماحق امرىء مسلم له شىء يريد أن يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده » .

لهذا كان السلف يبادرون بالوصية . ولما سمع ابن عمر حديث

رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا لم يبت ليلة إلا وقد كتب وصيته ، مبادرة إلى الامتثال ، وطمعا في الفضل وكان الصحابة يكتبون في صدور وصيتهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أوصى به فلان بن فلان ، أن يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ويشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور . وأوصى من ترك من أهله أن يتقوا الله ، ويصلحوا ذات بينهم ، ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ، وأوصاهم بما أوصى به إبراهيمُ بنيه ويعقوب : { إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون } .

قال الدميرى : رأيت بخط ابن الصلاح : أن من مات بغير وصية لا يتكلم في مدة البرزخ ، والأموات يتزاورون سواه ، فيقول بعضهم لبعض : مابال هذا ؟ فيقال : مات على غير وصية !

وفي الحديث : من مات على وصية مات على سبيل وسنة ، وتقى وشهادة ومات مغفورا له » .

وقد حض الله تعالى عليها في أربعة مواضع من آيات الميراث ، فقال { من بعد وصية يوصى بها أودين } .

والعلماء يُعرِّفون الوصية : بأنها تبرع بحق مضاف لما بعد الموت .

وهذا التبرع قد يأخذ حكم الواجب إذا كانت على الإنسان حقوق فاته أداؤها ، كزكاة ، أو حج ، أو دين .

وقد عرفتُ أناساً شَقُوا فى حياتهم ، وجمعوا من الدنيا ماعدهم به الناس أغنياء . ثم ماتوا ، ولم يوصوا . ومنهم من لم يحج ولم يوص بالحج عنه .

هؤلاء يجب على ورثتهم ، شرعا ، وبرا أن يحجوا عنهم ، وأن يؤدوا عنهم ماتأخر عليهم من زكاة . كما يلزمهم أن يتصدقوا عنهم . وذلك من البر الواجب على الأبناء للآباء بعد موتهم . ومن الجحود ، والعقوق أن يستمتعوا بما تركوا لهم ، مما جمعوا ، وشقوا فى جمعه ، ثم لا يبروهم ببعضه ، بأداء ماوجب عليهم ، وما يخفف به عنهم : لقد جاء رجلٌ النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن أبى مات ولم يوص ، أفينفعه أن أتصدق عنه ؟ قال : نعم .

وذكر المازنى فى مختصره أن الشافعى قال فى (الإملاء) : يلحق الميت من فعل غيره ثلاثٌ : حج يؤدى ، ومال يتصدق به ، ودعاء .

والوصية تكون لغير وارث ، فإن كانت لوارث لا تنفذ إلا برضى الورثة[1] وينبغى للموصى أن يكون عادلا فى وصيته ، غير

(١) فى القانون الصادر لسنة ١٩٤٦ صحة الوصية بالثلث للوارث وغيره وتنفذ من غير إجازة الورثة .

متجانف لإثم ، لأنها خاتمة عمله فلتكن وصيته ختام خير . روى عن أبى هريرة أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : إن الرجل ليعمل ، أو المرأة بطاعة الله ستين سنة . ثم يحضرهما الموت ، فيضاران فى الوصية فيجب لهما النار » ثم قرأ أبو هريرة { من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله } .

ورواية الإمام أحمد ، وابن ماجه : إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى حاف فى وصيته ، فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيدخل الجنة » .

وفى هذه الأحاديث وعيد شديد ، وزجر بليغ ، لأن مجرد المضارّة فى الوصية ، والجور فيها إذا كان من موجبات النار ، بعد العبادة الطويلة فى السنين المتعددة ـ فلا شك ـ تكون من أشد الذنوب التى لا يقع فيها إلا شقى .

وقراءة أبى هريرة للآيات تأييد لمعنى الحديث ؛ لأن الله سبحانه قد قيّد ماشرعه من الوصية بعدم الإضرار ، فتكون الوصية المشتملة على الإضرار مخالفة لما شرعه تعالى . وما كان كذلك فهو معصية . وقد ورد عن ابن عباس أن وصية الضرار من الكبائر . **فما أحق وصية الضرار بالإبطال** ، من غير فرق بين الثلث وما دونه وما فوقه كما أن الورثة لو حرموا موصىً له بحق كانوا ضامنين !

وأقرب ضرار يقع فيه الناس فى تصرفهم فى أموالهم حرمان

البنات من نصيبهن الذى افترضه الله ، ولهم فى ذلك تعلات لا تغنى عنهم عند الله شيئا .

والأفضل فى الوصية أن تكون : للقريب غير الوارث ، ويقدّم المحرم من الأقارب ، ثم ذوو الجوار ، ثم أهل الخير من الفقراء .

والوصية لا تنفذ إلا فى ثلث التركة ، واعتبار الثلث إنما يكون فيما ترك الموصى عند موته .

ويحسن للموصى إذا كتب وصيته أن يُشهد عليها ، خروجا من خلاف من يرى من العلماء ضرورة الإشهاد على الكتابة . وعندى أنه إذا كان الموصى معروف الخط ، وجزمنا بأنه الكاتب أُمضيت وصيته ولو من غير إشهاد .

مما يجب التنبية عليه ما غفل عنه الناس مما شرعه الله وأوجبه على الورثة من رزق من حضر قسمة المال من ذوى القربى غير الوارثين قال تعالى { وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا } النساء : ٨

أى إذا حضر قسمة التركة ، أو قسمة أموال اليتامى عند الرشد أو تنفيذ الوصية ـ أحد من ذوى القربى للوارثين أو الموصى لهم ، ومن اليتامى والمساكين فانفحوهم بشىء من هذا الرزق الذى أصابكم من غير كدّ وقولوا لهم قولا حسنا يحفظ عليهم كرامتهم وعزتهم ، ويرفع عنهم مذلة الأخذ وذلك عن طريق الهبة أو الهدية أو إعداد طعام لهم يوم القسمة . وذلك من صلة الرحم ، وشكر النعمة . وهذا من أساليب الإسلام الخاصة فى تعميم الخير !

ومن أبواب الخير التى فتحها الإسلام ـ سابقا غير مسبوق ـ ليعود خيرها على الميت بعد موته ، ويشمل نفعها الناس من بعده ـ الوقف .

ويعرفه العلماء بأنه حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه مثل الأراضى ، والدور ، والكتب ... على مصرف مباح .

وقد فعله عمر بإرشاد النبى صلى الله عليه وسلم . ووقف عثمان رضى الله عنه ، بئر رومة سقيا للمسلمين . وفسر العلماء الصدقة الجارية بالوقف ، فى قوله صلى الله عليه وسلم : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

وقد زيد على هذه الثلاث ما أخرجه ابن ماجه بلفظ : إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علما نشره ، وولداً صالحا تركه ، أو مصحفا ورثه أو مسجداً بناه ، أو بيتا لابن السبيل بناه ، أو نهرا أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه بعد موته » .

ووردت خصال أخر تبلغها عشرا ، نظمها الحافظ السيوطى فى قوله :

إذا مات ابن آدم ليس يجرى
عليه من فعال غير عشر
علوم بثها ، ودعاء نجل ،
وغرس النخل ، والصدقات تجرى

وراثة مصحف ، ورباط ثغر
وحفر البئر أو إجراء نهر
وبيت للغريب بناه يأوى
إليه ، أو بناء محل ذكر

لكم أدى (الوقف) للمسلمين ولكل من فى مجتمعهم ، من خير : لقد عالج الفقر ، وكفى المحتاج ، وحفظ على كثير حياتهم ، وكرامتهم . وكم آوى وأسكن وأطعم وأسقى . وكم عمرت به دور ، ورعيت يتامى ، وتعلم صبية وشباب ، وكم شيدت مدارس وأقيمت (السبل) على طرق المسافرين تؤويهم ، وتطعمهم وتسقيهم ، ودوابهم [1] وكم فطرت آبار وشقت أنهار ، وأقيمت (دور الحكمة) وشيدت مستشفيات ... ومازال مستشفى (العجوزة) (وقصر العينى) بالقاهرة ـ شواهد قائمات تعرب بالحجة ، وتنطق بالبرهان على تلك الآثار القيمة لهذا التشريع الإسلامى العملى ، الذى كان من خصائص الأمة الإسلامية . حتى الحيوانات كان لها نصيب فى أوقاف المسلمين .

وما زالت سجلات الوقف بوزارات الأوقاف ، فى مصر وغيرها ـ موجودة شاهدة بفضل هذه الخصيصة الإسلامية الفريدة .

١ـ من أراد أن يعرف طرفا من ذلك فليرجع إلى « كتاب المناسك وأماكن طرق الحج » لإبراهيم بن إسماعيل الحربى ، تحقيق الأستاذ الشيخ حَمَد الجاسر من منشورات دار اليمامة ـ الرياض ـ السعودية ـ : حيث ذكر الإمام الحربى أسماء مئات الآبار والقصور ، والبرك التى أنشأها الخلفاء ، وغيرهم من أفراد الأمة في طريق الحجاج . وهذا مثل من نوع واحد مما كان المسلمون يقفرنه في سبيل الله .

وإنه ليمكن لباحث ، بالدراسات العليا الاجتماعية أن يقوم بالرجوع إلى هذه السجلات ، ودراستها وتطبيقها على آثارها المادية والأدبية فى واقع المسلمين ، وفى مجتمعاتهم ، ليخرج ببيان الآثار الطيبة التى لا يعوضها غيره فى علاج الفقر ، والمرض ، والجهل ...

ويا للأسف ! قضت السياسة فى مصر ، بعد سنة ١٩٥٢ على هذا التشريع الإسلامى وآثاره . فسدت بابا واسعا من أبواب الخير الاجتماعى الجليل واستبدلت به (الضمان الاجتماعى) الذى لا يغنى ولا يسمن من جوع .

وبذلك حملت الدولة ما أعجزها ، مما كانت فى غنى عنه ، وسدت على الضمائر باب التبرع للخير ، والقربى إلى الله ورجاء الثواب بعد الموت ، وساعدت على شيوع العوز والحاجة ، وواجهت مشاكل التعليم والفقر والعلاج والمساكن ... وكلها مشكلات حملها الإسلام على أفراد الأمة فأدوا حقها .. وإلى عهد قريب كان الطلاب من أقطار الأرض يأتون إلى الأزهر يتعلمون ، لا يكلفون ذويهم القطمير ، ثم يعودون إليهم مصابيح هدى ودعاة خير !!!

هذا ، ولم نسمع للعلماء ، الذين تربوا على هذا الخير صوتا ناكرا عند إغلاق هذا الباب ، والاستيلاء على أوقافه ، ولم يسمع لهم صوت داع إلى فتح هذا الباب ورد حقوقه المسلوبه !!

وصيتـــــــى

وصيتـــــى

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أوصى به عبد المجيد بن حامد بن صبح بن محمد موسى أن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . ويشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور .

وأوصى من ترك من أهله : أن يتقوا الله ، ويصلحوا ذات بينهم ويطيعوا الله ورسوله . إن كانوا مؤمنين .

وأوصاهم بما أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب : { إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون }

١ـ وأول ما أوصى به أن تقرأ الوصية العامة ، وهى كل ماتقدم ، وتنفذ علىّ .

٢ ـ الذى يقرأ عندى سورة يس جهرا ، وسورة الرعد سرا ، إحدى بناتى .

٣ ـ الذى يقوم بإغماضى وشد لحيىى ، وتليين مفاصلى إحدى بناتى .

٤ ـ الذين يقومون بغسلى أحد الأبناء ، ويعاونه الآخر مع إحدى بناتى . ثم يحضرنى عالم يدعو إلى الله غير مأجور ،

ويشارك فى اختياره الحاج حمدى مصطفى .

٥ - كفنى هو ملابس الإحرام ، ويوجد منها إزاران ورداءان ، يعده الحاج إسماعيل فرغلى ، وإذا فاض عن ثلاثة أدراج يبسط الزائد تحتى فى القبر ، وإذا نقص يكمل بالشراء .

٦ - قبل أن ألف بالكفن يكتب أحدهم بالإصبع المسبحة ، بنحو زيت عطرى على الجبهة : بسم الله الرحمن الرحيم

وعلى الصدر : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

يكتب - فى حرز - يوضع بين الصدر والكفن : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد . لا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

٧ - يخطر بوفاتى ، وبموعد الصلاة علىَّ عصراً بمحلة دمنة كل من له عندى رقم الهاتف وتخطر البلاد التى كنت أحاضر فيها لا سيما : المنزلة ، ونبروه ، وميت الكرما وبيلا ، والمنصورة . والبلاد المحيطة بمحلة دمنة ، ومجمع الإيمان والجمعيات الشرعية والدينية . وكل من يرى المهندس محمد البشلاوى إخباره ممن يعرفهم ، ومن يعرف أنه يعرفنى .

٨ - تنقلنى عربات جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالمنصورة إلى حيث يصلى علىّ عصراً بمحلة دمنة .

٩ - اللحاد المحترف بمحلة دمنه لايمسنى ، ولا يدخل قبرى ويتولى ذلك الحاج إسماعيل فرغلى ، ومن يعاونه من أبنائى ، والمهندس محمد البشلاوي .

١٠ - يصلى علىّ أحد أبنائى إماما ، فإن لم يكن فالمهندس محمد البشلاوى ، ويحضر جميع أزواج بناتى وأولادهم الذكور

المميزون ، والبنات المميزات .

١١ ـ أولادى جميعا وأولادهم يصلون علىّ ، وإذا لم يمكنهم الصلاة فى المسجد يصلون علىّ بعد الدفن فى قبرى .

١٢ ـ يوضع معى فى القبر جريدتان ، والنخل موجود بمنزل الأستاذ محمود قوره .

١٣ ـ يوضع معى فى القبر عند رأسى ثلاث حفنات من تراب قرأ عليها أولادى أول سورة البقرة وآخرها . أو سورة القدر سبع مرات ـ والتراب يؤخذ من القبر ، فإن لم يتمكن الأولاد يقوم بذلك المهندس محمد عبد العظيم البشلاوى فإن لم يمكن فأحد العلماء .

١٤ـ يوسع فى القبر عند الرأس ، ويسند الوجه والرجلان إلى جدار القبر ويُتجافى بباقى البدن عن الجدار ، ليكون الميت قريبا من هيئة الراكع .

١٥ ـ يقف جميع أولادى وأزواجهم وأولادهم ، وأزواج بناتى ، بعد الدفن عند قبرى مقدار ساعة : يدعون ، ويستغفرون ، ويسألون لى التثبيت ، والرحمة .

١٦ ـ عقب ذلك : تنفذ الوصية المالية .

١٧ ـ تذاع بعض تسجيلاتى بأحد مساجد محلة دمنة ، ولا سيما مسجد الأربعين .

١٨ ـ يجتمع بعض الشباب على تدارس بعض كتبى ولا سيما كتاب الوصية ، وكتاب أصول المناهج الفقهية . وأرجو أن يفعل ذلك أيضا بعض شباب مجمع الإيمان .

١٩ ـ مكتبتى وقف لله تعالى على أولادى وأولادهم أبداً ، لا

تورث ولا تباع ولا توهب ويخصص لها مكان ، ويتردد عليها من يريد التعلم أو المراجعة أو الاطلاع أو الاستذكار .

٢٠ ـ الوصية المالية :

أفصلها فى ورقة خاصة .

والله حسبى ، ونعم الوكيل ، وإليه المصير ،،

عبد المجيد حامد صبح

الفهرس

الموضوع	الصفحة

المريض والمحتضر

الوصية وأحكامها

رقم الإيداع ٨٩١٩ / ٨٩

مطابع الوفاء - المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN